
أحمد السباعي
يقدم
يوميات
مجنون

أحمد السباعي

يوميات مجنون

دار ممفيس للطباعة - ت ٢٦٨١٨

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿نٓ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ * مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ﴾

(القلم:1-)

صدق الله العظيم

يوميات مجنون

رأيته أول ما رأيته في سهرة خاصة في بيت أحد أصدقائي، فأنكرت منه نظرة شزراء حدجني بها وأنا أحييه.

إنه لم يحفل بالتحية فآلمني.. أمّا هذه النظرة المريبة الشزراء فقد بلغت من نفسي أقصى ما يبلغه الألم!!

إني لا أعرف شخصه قبل اليوم، فهل عرفني من حيث لا أدري؟ وهل أسأته في أي مناسبة تركت أثرها في مثل هذه النظرة القاسية؟

شغلت هذه الوساوس جزءاً كبيراً من مقامي بين إخوان السهرة، وصرفتني عنهم إلى آفاق اضطربت فيها كما يضطرب الملتاث لذعة قارص!

استرعى اضطرابي انتباه صديق لامع كان يجلس إلى جواري، فمال على أذني يستطلعني في صوت خافت سر هذا الالتياع، فعجبتُ لنفسي أكثر مما عجب، ورحتُ أعلّق على الموقف بصوت مسموع، كنت آمل أن يبلغ مسامع صاحب النظرة الشزراء قبل أن يبلغ الآخرين!

قلت إننا جماعة (العصبيين) في الحياة، نبيح للمتطفّلين أن ينالوا من أعصابنا ما لا يستأهل النَّيل؛ وقد يصادفنا المتطفِّل من أهون الناس شأناً فننسى هوانه.

وتأبى أعصابنا إلا أن تتوتر لنظرة طائشة، أو حركة تدل على هوان صاحبها، أو صَغاره.

قلت هذا وأنا ألهث كما يلهث المطارَد في ميدان واسع الحلبة، وكنت أظنني بلغت من صاحبي ما يبلغه الموتور.. ولكن صاحبي كان أثقل من كتلة الحديد وقد بلغ وزنها أطناناً!!

وكان في عينيه من الجمود ما أحالها إلى لون الزجاج الصافي.

أكبرت تعاليه بقدر ما استصغرت هواني، وزاد حردي عندما رأيته يتناول جريدة كانت في متناول يده على رف قريب ويقلّب صفحاتها في برود مَن لا علاقة له بما أقول.

وعاد جاري في المجلس يميل على أذني ويسر إليها :«إن صاحبك مجنون فلا تكلّف أعصابك ما يرهقها».

أمجنون هو؟؟

إن هذا آخر ما يمكن أن يُقال.

ولِمَ لا أكون أنا المجنون، وقد اهتممت له أكثر ممّا يحتمل من الاهتمام، وعنيت بنظرته الشزراء أكثر ممّا تستحق من العناية؟

أمجنون هو؟؟

ما أكبر هذا المجنون الذي يعرف كيف يمتحن الأعصاب الضعيفة، ويعلن بين الناس خورها وعدم تماسكها!!

وهل يكون مجنوناً هذا السمت الرزين، والشخصية الوقور والهيئة الناطقة بأروع ما تنطق به هيئة جذابة؟

*** * ***

ولمْ تمضِ إلاَّ دقائق حتى رأيت صاحبي ينتصب في قامة فارعة، ثم يمر بيده على أثوابه مراً رفيقاً كمن يصلح مواضع الصقل من طياتها، ثم يومىء إلى الحضور كمن يستأذن في إيماءة لها من معاني العجرفة ما لا يقل عن معاني الأدب.

وانطلقت الألسن بعد خروجه على عادة الحياة بين أبنائها فقال أحد الجلوس:

إن الشذوذ سينتهي بهذا الرجل إلى ما يعجز عنه العلاج.

وقال آخر: إن الوساوس تملّكت رأسه فهو منها في شر مستديم.

وقال ثالث: إن مَلَكَةَ التفكير أرهقها العمل المستمر فانتهت به إلى رد الفعل الذي ينتهي إليه الإرهاق.

أمّا مضيفنا صاحب البيت فكان لا يرى ما يرون؛ فقد جادل المختلفين في شأن صاحبه وأطال الجدل ليثبت لهم أن صاحبهم سليم التفكير، غزير الفهم، وأنه لا ينكر عليه إلاَّ بعض التطرّف الذي ينكره الناس على أصحاب الآراء الحرة في الحياة.

قلتُ: وهل تظنني كنت هدفاً لتطرّفه الذي تقول به رغم عدم معرفتنا قبل اليوم، أم تظنها الآراء الحرة تهيئه لكراهية الناس وبغضهم دون مبرر سابق؟.!

فقهقه جاري في المجلس، وقال: ما بالك تستبعد أن يعرفك صاحبنا كأديب ومؤلِّف، وربما أنكر عليك عيوباً علمها ممّا تكتب؟ أتريد أن تزكّي نفسك أمامنا حتى من عيوبك كأديب؟؟ إنك لو استطلعت رأيه فيما يبرر النظر والشزر فليس ببعيد أن تتكشف لك حقائق من الخير أن لا تتكشف.

*** * ***

وشعر مضيفنا أن الحديث سيتحوّل إلى غير لونه الصافي فشرع يفسر ما فهمه من النظر الشزر فقال:

ألست معدوداً من أدباء هذا البلد؟

قلت: لعلّهم كذلك يقولون.

قال: فإذا صح ما قاله الناس فأنت من المكروهين عند صاحبنا.

قلت: أهو عدو للأدب؟

قال: بل هو عدو للأدباء، ولديه عنهم آراء. لا أدري مبلغ الحق فيها من الباطل. ومن رأيي أن تمهد لمناسبة تجتمع به فيها عساك تستطيع أن تستطلع رأيه فيك وفي أمثالك من معاشر الأدباء.

قلت: وهل تراه رأياً عالياً يستحق هذه العناية والتمهيد؟

قال: أمّا عن الرجل كمفكر مثقف فأنا أول مَن يشهد بغزارة اطلاعه وقوة ملكته في دراسة الأفكار وفهمها.

وأمّا إذا كان في بعض استنتاجه ما يصح أن يتسم بميسم التطرّف أو الشذوذ الذي أشاع عنه بعض ألوان الجنون، فهذا بحث لم أنتهِ فيه إلى اليوم برأي خاص، وعساك أن تصل في شأنه إلى ما لم أصل.

*** * ***

ومضى عام أو ما يقارب العام نسيت في أثنائه الفكرة كما نسيت صاحبها. إلى أن مررت في أحد الأيام بدكان خياط من أصدقائي لمحت فيه صاحبنا وقد أخذ يحاضر إحدى المتسوّلات بلغة لم تفهم المسكينة منها غير معاني الزجر والطرد. فاستوقفني صوته، واستهواني لدخول الدكان.. وأنا أؤمل أن أستمع إلى شيء ممّا يقول، وأن أظفر بلون يدلني على حقيقة أمره.

ونشط صاحب الدكان لتحية القادم، وتبعه شخصان كانا بجواره، أما الأستاذ –وهكذا كانوا يلقبونه كما علمت فيما بعد– فلم يتحرك لقدومي، ولم يتفضَّل بإعارتي لفتة تدل على شعوره بوجودي!!

تغافلت عن جموده، ورحت أمد يدي لمصافحته بعد أن صافحت الحاضرين، فلم يزد على أن مد يده في فتور، ثم انطلق يتابع محاضرته في شأن المتسوّلة رغم أنها ولّت الأدبار بعيداً عن الدكان.

وسمعت أحد الشخصين يحاوره :((**إنك يا أستاذ تعلم أن الله ينهى عن نهر السائلين، فما بالك تسيء إلى المسكينة بمثل هذه الفظاظة القاسية؟. إن مثل هذه لا تكلّفك إلاَّ أن ترد عليها رداً حسناً يصرفها إلى غيرك، ولا يحمّلك هذه الأوزار التي تقترفها**)).

فلم يزد على أن نظر إليه النظرة الشزراء التي ساءتني في أحد الأيام، ثم انتقل بها حتى واجهني بمثل قسوتها، ثم اعتدل واقفاً في قامته الفارعة. وأومأ إلى صاحب الدكان إيماءة متكبرة تشير إلى الخروج، ثم ولّى ويده لا تفارق ثيابه الناصعة، كأنها تعيد صقلها.

لم يستتر دهشتي كثيراً بما فعل، فرأيه في شأن المتسوّلة رأي كل مثقف يعرف حقيقة السائل الذي يأمر الدِّين بمواساته.. إن مثل هذا النوع من محترفي التسوّل لا يستحق العطف بقدر ما يستحق التقريع والتأديب.

إن مثل هذه الفتاة التي شهدت الأستاذ يحاضرها باللغة القاسية التي فسَّروها بالإهانة والطرد لا ينبغي أن ننحاز إليها ضد الأستاذ.. إنها في مثل هذه السن اليافعة تعرّض نفسها لأخطار الطريق، وتربي نفسها، أو يربيها ذووها على خِلال

لا تستطيع التخلص منها في مقتبل العمر، وتحكم على أنوثتها بأفظع ممّا يحكم عليها الجبابرة الظالمون.

إننا إذا افترضنا حاجتها إلى ما يقيم أودها، أو يسد حاجة أم لها، أو أخوة عاجزين عن الكسب، ففي استطاعتها –إذا أرادت الاستقامة– أن تبحث عن مخدوم يقبلها لأهله ويكفيها ذلّ السؤال، ويمنحها مرتباً شهرياً يعين العاجزين في بيتها.

وفي استطاعتها إذا أبت قيود الخدمة أن تعرض نفسها في البيوتات الكبيرة على أعمال الغسل أو غيرها من الخدمات المؤقتة التي تدر عليها ما يكفل لها أسباب العيش. فالبيوت في أعوامنا الأخيرة أصبحت شديدة الحاجة إلى الغاسلات والخادمات.

وجميع المتسوّلين والمتسولات من هذا الصنف لا يجهلون حاجة الناس إلى الأيدي العاملة، ولكنهم استمرأوا الكسل ووجدوا في احتراف التسوّل مهنة مربحة تدر عليهم أخلاف الرزق. وقد تقاعدنا عن تهذيبهم والضرب على أيديهم فاستفحل داؤهم وتفاقم!!

هذا رأي أناصر به «الأستاذ» من غير شك، وأستطيع أن أبدأ به كسطر جديد في صفحة «له» كما يسمّيها رجال الحسابات!! فقد كان رأياً له قيمته، وفيه أدلة على نضج عقلية الأستاذ وحصافتها.

ولكن ما شأن هذه الكبرياء التي تحجزه عن مناقشة إنسان عارض فكرته وهو يحاضر الفتاة المتسوّلة؟؟

أتراه يترفع عن منافسة معارضيه فيزدريهم بهذا التمثيل الذي شهدنا لونه في مغادرته دكان الخياط؟ أم هو نوع من نوبات الشذوذ الذي يعتري بعض المرضى بعقولهم؟

على أنني لا أتعجل البتّ فيما أرى، ولا أسوّد الصفحة المقابلة بمثل هذه النقاط حتى أتبيّنها وفي حوادث الأيام ما يكفل ذلك.

وبينما أنا أجلس في أمسية أحد الأيام في ردهة المطبعة المطلة على الساحة أمامها.. وكانت أعمال الهدم في توسعة المسجد الحرام على أمتار مني تعقد غباراً يستحيل معه مرور المارة، وأصوات آلات التفجير في الجبال تضج بها أجياد والأحياء المجاورة، وقِطع الأحجار تتناثر من شدة التفجير إلى آفاق مترامية بعيدة، والناس تجري في ذعر مبعدة في الشوارع النائية.. إذا بصاحبي (الأستاذ) على خطوات مني يلتمس الفرار بثيابه المصقولة. ويده لا تفتر عن نفض الغبار بكفه مرة، ومنديله أخرى، وأنامله لا تفتأ بين هذا وذاك توالي مرورها الرفيق على طوايا الثوب، تمدد ما انكمش، وتصلح ما انطوى.

كانت فرصة لا بد من اهتبالها لدعوة (الأستاذ) إلى مجلسي من الردهة تمهيداً للتعارف بيننا، ولكن صوتي –إذا أردت أن أحسن الظن– أبى إلاَّ أن يضيع بين دوي آلات التفجير القاصف، فأسرعت أستبق الخطو حتى انتهيت إليه.

ووجدتني أقلد عجرفته، فلم أبدأه بتحية قبل أن أتأبط ذراعه، وأمضي به إلى مجلسي بخطى عنيفة عصاني فيها أولاً، ثم أسلسها لي وهو يضحك في تبرم وغيظ.

قلت وأنا أقدم له كرسي الجلوس: أي حرج يثنيك عن هذا المقعد الذي يعصمك من الغبار، ويقيك شر الأحجار المتطايرة؟

فافتر ثغره عن ضحكة أزاح عنها أثر التبرّم، وامتدت يده إلى كفي يشد عليها في حركة تدل على الامتنان، ولاح على وجهه مشروع كلمات كاد أن يقولها.. ولكنه ما لبث أن كظمها في عزم أكيد.. ثم عاد إلى الضحك وفي وجهه من المعاني ما يختلط على أمهر قرّاء الأفكار.

وعنَّ لي أن أستثيره، فورد إلى خاطري بيت من الشعر القديم تراءى لي أنه ربما فسّر رأيه في مثل هذا الظرف فقلت: أترى الشاعر القديم كان جاداً فيما ادّعى وهو يقول:

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى

عدواً له ما من صداقته بد!!

فافتر ثغره عن ابتسامة امتزج فيها الرضا بالسخط، ولم يزد عن أن تشاغل بثوبه يصلح طياته من أثر الكرسي وبدأ يتحرك كمن يتهيأ للقيام.

وأشفقت أن تفوتني الفرصة التي لا أعوضها مع أمثال هؤلاء الشواذ. فقلت –وأنا أحاول إيلامه ليخرج من صمته– لعلك من هذا النفر الذي يصطنع

الكبرياء ليشيد لنفسه مقاماً وهمياً.. إنها شعوذة يا صاحبي لا تصدر عن رجال ندبوا أنفسهم لتعليم الناس معاني الفضائل، إنني لا أنسى يوماً رأيتك فيه تبذل من الجهد الشاق ما تحاول به أن تصلح فكرة المتسولين في شخص تلك الفتاة البائسة التي أبيت إلاَّ أن تلقنها معاني الكرامة، وتعلّمها كيف تربأ بنفسها عن ذل السؤال، فكيف توفق بين الحساسية العالية التي تندبك لوعظ الفتاة وبين الفتور العاطفي الذي تجازي به إنساناً مثلي يحاول أن يتعرف إليك ويخطب ودك؟

وقلت: إن أفضل مميزات الرجل الراقي أن يتمتع بحساسية عالية تحبب إليه مصافاة الناس، وتربأ به عن مجانبتهم، وإشعارهم بمعاني الكراهة التي يتجلّى بها محياك، كلما جمعتك بهم صدفة، أو ساقتهم إليك مناسبة.

إنك يا صاحبي تُعنى بأثوابك عناية أصحاب الذوق الرفيع، وتنسى أن أصحاب هذا اللون من الذوق يحاولون أن يرضوا بتجمّلهم مَواطن الجَمال في أعماق الناس تودداً إليهم، واصطفاء لهم فأين أنت من هؤلاء وأنت فاتر العاطفة مغرم بمجانبة الناس وكراهيتهم؟.

قلت هذا وأنا أنظر في عينيه وقد تعلقت أهدابهما بمخارج الحروف من فمي.. يتابع بها كل حرف أنطقه في بلاهة المشدوه، وحفاوة المُعجب، حتى إذا انتهيت إلى نهاية ما قلت، أطرق برأسه يتعقب مواضع الصقل من ثوبه، ويمر بيده في رفق على مَواطن الانكماش منه.

ثم عاد فرفع رأسه وهو يهم بالكلام.. ولكنه ما كاد ينطق حتى بدأت المعاني تتقشع عن محيّاه، وبدا كمن يبذل جهد المستميت ليفتح على نفسه بحرف يلفظه أو كلمة يقولها.

تركته لصمته وأنا أقدّر في نفسي شعور بعض أصحاب المزاج الحاد ممّن ينقادون لأعصابهم.. فينشطون للحركة أو الكلام إذا توترت أعصابهم، ويهدأون إذا خمدت جذوتها.

ولا آمن أن يكون صاحبي مريضاً بأعصابه إن لم يكن شيئاً آخر ممّا لم تتكشف لي حقيقته بعد.

وواتاني صوته وأنا في غمرة من اضطرام أفكاري، فلامس أذني في خفوت الأصوات الحالمة، ثم انطلقت نبرته في جرس يئز أزيز الأثقال المشدودة إلى جِمال وئيدة الخطو قوية الإسار.

–إنك يا صاحبي قرين قوم أحاول ألاَّ أكرههم! ولكني –وأنا أصدقك القول– لا أشتهي أن أحبهم.. لهذا كنتُ أتمنى ألاَّ تجمعني بك أو بمثلك مناسبة، أو ينفسح أمامنا باب للجدل.

لم أدهش كثيراً لما قال، لأن فكرة إضافتي إلى جماعة الأدباء الذين يمقتهم لا تزال عالقة بذهني من أول يوم رأيته فيه يحدجني بالنظر الشزر، وسمعتُ مضيفنا

يومها يفسر ذلك بمعاني الكراهة التي يشمل بها أدباءنا وقد تمنى عليَّ أن أحاول حل هذه العقدة، أو أن أتوصل إلى معرفة بواعثها من نفسه.

قلت وأنا أحاول أن أبدو طبيعياً لا يستثيرني جفاؤه أو جفاف صراحته:

–إنك –ولا ريب– لم ترتجل كراهتك ارتجالاً شأن إنسان بادي الرأي يتأثر بالفكرة الطارئة والهوى الجامح، ولكنك مهما بلغت في تزكية نفسك لا أعتقد أنك تستطيع أن تدَّعي لها العصمة من خطأ يندس إليها، أو غلطة تلتبس عليها، ولهذا يجمع المفكرون على أن الحقيقة لا تكمل عناصرها قط إلاَّ بعد عرضها للمناقشة والبحث، وأنت فيما يبدو لي إنسان تتكبر على البحث وفي هذا – كما لا تجهل– لون من الأنانية لا آمن أن يغريك بالخطل أو يلبس عليك بعض الأغلاط.

قال وقد تفتحت أساريره للكلام، وغاض من محياه ذلك الاشمئزاز المغيظ، واستنير مزاجه للبحث القوي الذي شهدت غراره يوم سمعته يحاضر الفتاة المتسوّلة..

إنه قد نسي الآن ثوبه كما نسي مواضع الصقل فيه، والتفت يواجهني في جد صارم، وكلمات قوية نفاذة.. كانت تتدفق في تزاحم خِلتُ معه أن صاحبي سيستحيل إلى شيء جديد لا يمت بِصِلةٍ إلى ما عرفت. قال فيما يحدثني به:

أرأيت في حياتك أديباً لا يؤجر؟ ستقول إنه ينقصني أن أفرق بين أديب مرتزق، وأديب أصيل.. إنني لا أُحاجّك في المرتزق ما دمت تعلمه. ولكني أناقشك في

الأصيل لأني عشت شبابي أبحث عن مكانه بين الأدباء، فأعياني البحث دون أن أصل إلى جدوى.. إني أفهم الأصيل كفنان يرضي حاجته إلى الذوق الرفيع دون أن يأبه لتفاعلات الحياة التي كونت وجدانه، وهيأته لسائر القيم التي توارثتها بيئته.

إن جماعة المرتزقة من أدبائكم يستأهلون العطف أكثر ممّا يستأهله غيرهم.. فقد كانوا أكثر صراحة في تنزّلهم إلى أدنى ما يبلغ إليه التنزُّل، أمّا روّاد الفن من غيرهم ونحن نسمّيهم أصلاء فقد خادعونا بما يزيفون.. إنهم لا يرتزقون بأقلامهم ولكنهم مجندون لخدمة ما تواضع الناس على تقليده أو تقديسه.. إن أجرأهم قلماً لم يقوَ إلى اليوم أن يستنَّ للناس نهجاً يخالف ما ألفوا من مناهج، أو يطعن تقليداً طال اطمئنان الجماهير إليه، واحتل من نفوسهم مكان القداسة والتحبيذ.

بالأمس رأيت قطباً من كبار علماء الباكستان يمشي إلى حقل درسه في المسجد، وليس عليه من الثياب إلا سروال طويل وقميص رقيق، وقد أناط برجله جلدة من أبسط ما يمكن انتعاله، وترك رأسه الأصلع يواجه الشمس والهواء.

إنني أتمنى أن أكون إنساناً مطبوعاً، أطلق جميع العنعنات التي ورثتها أثوابي وأواجه الحياة إنساناً جديداً لا علاقة له بجميع ما ورث من قيم.. ولكنني عبد مجنَّد، مأجور لخدمة جميع القيم التي تفاعلت مع عواطفي في هذه البيئة، وتغلغلت إلى وجداني فهيأته لما ترى.

إنني لا أستاء لشيء استيائي لهذه العبودية التي تنغص حياتي، والتي عجزت إلى اليوم عن كسر أغلالها.. وقد ترك هذا أثره واضحاً في أخلاقي، وشهده الناس ظاهراً في اضطراب تصرفاتي، لهذا ظنني بعضهم أوسوس، وأضافني غيرهم إلى أصحاب الشذوذ، ولم يتورع كثير منهم عن اتهامي بالجنون.

لك أن تسمّيني معهم مجنوناً إذا شئت، فإن ذلك لا يهمني مناقشته كثيراً. ولكن يهمني ألاَّ تنسى أنني عبد مجنَّد لخدمة جميع التفاعلات التي كونت ذاتيتي.. إنني مؤجر –من حيث لا أدري– للمشي في ركاب المناهج التي اطمأن الناس إليها، واحتلت من نفوسهم مكان التمجيد.

وهذه هي المأساة التي أشكوها من كل أديب أصيل، لا في بلادنا وحدها، بل في أكثر بلاد الشرق العربي.. إنهم مجندون مثلي لخدمة جميع الأفكار التي تفاعلت مع عواطفهم وكونت ذواتهم، فليس منهم إلى اليوم مَن يجرؤ على طعن تقليد احتل مكان القداسة من الناس وليس فيهم مَن يستطيع أن يتصدى لأي معادلة ورثها الجمهور من جيل كان يستضيء بنور ((لمبات الغاز)).

إنهم مثلي مؤجَّرون من حيث لا يعلمون لمشايعة جميع القيم التي تغلغلت في وجدانهم بمرور الأجيال، ولكنني أختلف عنهم لأنني أشعر بعبوديتي فينتابني الغيظ والحرد، ويظهر أثره على جميع تصرفاتي فينعتني الناس بالشذوذ مرة وبالجنون أخرى، أما حضراتهم فقد اطمأنوا إلى ما سخروا، وباتوا راضين بمشايعة القيم التي انطبع الناس عليها، وتوارثوا قداستها فكانوا في رأي أنفسهم عقلاء.

دُلّني على مكان الذوق الرفيع بينهم.. ذلك الذي يستعصي على جميع العواطف التي كونته، ويكبر عن تقديس القيم التي أستنَّتها الأجيال المظلمة.

ضع يدي على القلم الجريء الذي استطاع أن ينتهج خطة جديدة يتصدّى بها لهدم المعايير التي استنَّها وزَّانون عاشوا مغمورين وماتوا مجهولين، ثم طالبني بتقديره وافرض عليَّ حبه إذا شئت.

إنني لا أكرههم.. ولكني لا أشتهي أن أحبَّهم حتى يشعروا بمقدار عجزهم عن رضا الذوق الرفيع.

قال هذا ولم يترك لي فرصة التعليق على ما يقول، فقد غادر الكرسي دون أن يكلّف نفسه إيماءة يستأذن بها، أو حركة يشعرني فيها برغبته في الانصراف.

ورأيته يتابع خطاه في بطء المثقل بهموم الحياة، ويداه تنفضان ما انكمش في ثيابه مرة، وتلوحان في الهواء أخرى كأنهما تتابعان حديثه في قصة الأدباء.

وكان –في رأيي– أن الحديث لم يستوف جوانبه البارزة، فحاولته ليعود، ولاحقته بصوتي فأبى إلاَّ أن يتصامم.. وأخفته عني عطفة الطريق.

كنتُ أتمنى أن أقول له: إن المبدع لا يبني في الهواء، وإنه إذا لم يتفاعل مع الأوضاع التي ورثها، فإنه لا يقوى على الإنشاء المستقل.. ولكن مذهبه فيما يبدو لا يصيغ إلاَّ لنداء نفسه، وتلك مأساته وحده قبل أن تكون للأدباء مأساة..

فهل جاز لي أن أتهمه بالجنون أو الشذوذ؟ أم أن أمره أعمق من أن أتعجل فيه البت؟؟.

هذا ما تركته يومها للظروف المقبلة، وأخشى أن تكون عناصر هذه الظروف لم تكتمل إلى اليوم حتى أجرؤ على الحكم فيه.

*** * ***

تتابعت الأيام وأنا لا ألتقي بالأستاذ!! إلاَّ لماماً، وعلّمتني أحواله ألاَّ أحتفى ببوادره مهما تكن ألوانها، وأن أتقبل مآتيه دون أن أتكلّف لها تفسيراً أو أناقش فيها معنى.

كنتُ أعتقد أنه صاحب مذهب، وأن مذهبه لم يقسُ على عامة الناس وخاصتهم ليستثني نفسه من هذه القسوة، إنه يقسو على ذات نفسه بالقدر الذي يقسو به على الناس، ولهذا بات ساخطاً على جميع الأوضاع في الحياة بعد أن تراءت له مقلوبة لا تتسق وما تخيله من نظام.

لستُ أدّعي أنه متشائم لأن المتشائمين قلّما يهدفون إلى إصلاح بين، ولستُ أرى أنه مجنون لأن المجانين لا يرمون إلى غايات واضحة لهم.. كما أن القول بأنه عاقل شيء لا أرى في تصرفاته الشاذة ما يشجعني على الأخذ به.

كنتُ أناقش أمثال هذه الأفكار في نفسي كلّما جمعتني به صدفة. ولكني لم ألزم نفسي قط بنتيجة يتعيّن عليّ اعتمادها في شأنه.. كنت أكتفي بالاستماع

إلى الرأي الذي يبديه في الأوقات القليلة التي يواتيه فيها مزاج البحث دون أن أطلب إليه شيئاً أو أعارضه في بحث. وأستطيع اليوم أن أؤكد أنني بالرغم من تكرار الصدف التي سمعته فيها يناقش الآراء التي ناقشها، لم أجرؤ على الجزم بشيء في رجحان عقله فهو يسمو في نظري أحياناً إلى مرتبة الفلاسفة من الصف الممتاز، ويدنو أحياناً من الدرك الذي لا أملك له تفسيراً.

أمّا تصرفاته في معاملة معارفه فلم يُرضَ شيء منها على الإطلاق.

ويبدو لي أن مواقفي السلبية الفاترة من شذوذه أرضت عواطفه بعض الرضا.. فتعلّم زيارتي في إدارة المطبعة، ولذ لي أن أغريه بهذه الزيارة فكنتُ لا أثقل عليه في جلوس أو مغادرة، ولا أحرجه في بحث لا يشتهيه أو أعارضه فيما يشتهي.

كان حسبي منه أن أستمع إلى ما يعنّ له من الآراء في الأوقات التي يحالفه فيها طالع طيب، كما أسكت عنه عندما يخالفه الطالع أو يشرد به ذهنه في آفاق تستبيه.. كما تستبي المجانين بعض التخيّلات الشاردة!

وكان يسمعني في بعض الأحايين أناقش بعض الأفكار فلا تلذ له طريقتي في الاستنتاج إلاَّ في القليل النادر، وكان في بعض الأحايين يستنكر آرائي فيصوِّب إليَّ نظره الشزر.. دون أن ينبس بكلمة، وربما ترك مكانه في حدة غاضبة وأولاني ظهره في طريق الباب لأن إحدى بوادري لم تعجبه، فلا أتكلف له أكثر من كلمة (شويه يا أخ) التي لا جواب لها عنده غير ترك المكان بعد أن يكون قد سوى مواضع الصقل من ثيابه، وأصلح ما تكسر من طياتها.

وفي آخر مرة رأيته كان قد غاب عني أكثر من بضعة أشهر لا أراه ولا أسمع خبره، فلما حياني أبى أن يجلس، وراح يحدثني في اقتضاب عن عزمه على الارتحال إلى جهة أبى أن يسمّيها، ثم قال: وإني أستودعك أوراقاً أرجو أن تحافظ عليها ما أمكنك الحفظ على أموالك ونفسك، لتعيدها إليَّ سالمة كما تسلّمتها إذا كتب لي أن ألقاك، ولا حرج عندي إذا طال العهد إلى أكثر من خمس سنوات أن تفرض عليها ملكيتك فتنشرها إذا رأيت فيها ما يستحق النشر، أو تدفعها إلى العجوز (لمّام الورق) الذي ألِف المرور بالمطبعة، وسخّر حياته لجمع ما تناثر حولها من ورق مكتوب ليضمها إلى أكياسه المنفوخة، ويلهب فيها النار التي تعود أن يلهبها فيما يجمع من مهملات.

قلت: ولكني سأستبيح لنفسي حق قراءتها مدة غيابك إذا أذنت، فلم يُبدِ اعتراضاً.. ومد إليّ يده برزمة ما كدت أتسلّمها حتى كان قد غادر المكان دون أن يحييني أو يهتم لتوديعي.

ودهش للأمر صديق كان يجلس إلى جواري، وانطلق يسألني عن سر هذا الشذوذ؟ فقلت: لعلّه يبطن علة لم أتبين حقيقتها، وإذا صح فإن وديعته هذه لا تخرج عن فصول كان يكتبها لنفسه فإذا كنت تسخو بشيء من وقتك فإني على استعداد لأن أتلاقى وإياك على قراءتها، لعلّ فيها ما يحل غامضاً من ألوان هذه الحياة، أو يفسّر جانباً من جوانب الشذوذ فيها.

وقد صح حدسي فتكشفت الرزمة عن فصول دبجها صاحبنا لنفسه دون أن يعنون فيها فصلاً إلاَّ ما كان من أرقام تسلسلت تحتها الفصول، وكان أروع ما في هذه الفصول خطه الواضح الجميل الذي كان يتألق في صفحاتها تألق الصقل في أثوابه النظيفة.

أما مادة البحث فيها فقد كانت مجالاً لمناقشات لم أتفق وزميلي فيها بقدر ما اختلفنا.

وعنَّ لي وقد أصبحت اليوم أملك التصرف في حقوقها أن أصدرها كتاباً وأنا أؤمل أن أجد صداه في أوساطنا المثقفة الجديدة.

وأعتقد بعد أن طالت غيبته إلى أطول من المدة التي عيّنها، وفقدت أثره فقداناً كاملاً، أنني في حل من إذاعتها على النحو الذي يراه القارىء فيما يأتي من فصول.

-1-

ليس في الأمر ظالم أو مظلوم.. إنهم هنا يتفقون على جنوني.. أمّا أنا فلست أرى بينهم عاقلاً واحداً!! إذن فنحن متكافئون وليس بيننا ظالم أو مظلوم.

وإذا اختلف بعضهم في شأني، فليس في هذا البعض مَن ينفي عني صفة الجنون، بل إنهم ليرون الجنون فنوناً، فهم مختلفون في الفن الذي ينتظمني، أمّا أنا فلا خلاف عندي أنه ليس بينهم عاقل واحد.

-2-

تجمع كتب الأخلاق على ضرورة الصدق فهل كانت تعني ما تقول؟

يلقاني عمي فيسألني عن حالي.. إن حالي غير طيب منذ البارحة. فهل من خِلال الصدق أن أقول هذا؟ أيجب أن أنسى الصدق لأجيب الجواب التقليدي يسبقه اليمين :((والله حالي طيّب يا عمي)).

إنني في حيرة!!

ويقول عمّي: إن زوجته في غاية الشوق إليَّ.. ويتعين عليَّ أن أقول :((إن هذا بعض ما عندي)) فهل صدقنا جميعاً أم نحن كاذبون؟

إنني أعلم أن اسمي لم يمر بذهن زوجته منذ فارقتهم قبل أيام، وأنها لم تخطر ببالي إلاَّ في هذه اللحظة التي ذكرها فيها عمى. فهل أجاريه فيما يكذب، أم تراني مطالباً بأن أصدقه الحديث لأقول له في صراحة :((والله يا عمي إنني غير مشتاق لزوجتك))؟.!

تقول آداب المجاملة: إن من الجنون والسفه أن تجابه الناس بما لا يحبّون، وتقول وصايا الصدق: عليك ألاَّ تكذب. فهل أعرض سمعتي للجنون والسفه وأنا أختار الصدق، أم أعوّد نفسي الرياء والكذب لأحظى بخلال المؤدب.

إنني في حيرة!!

-3-

قيل عني إنني مجنون يوم تنكَّرت لأكثر معارفي ولم أستصف لودي إلاَّ عدداً ضئيلاً أثبتت التجارب أنه خليق بالاستصفاء والود.!!

وبالأمس زرت صديقاً لي من هذا النوع الذي استصفيت فلقيني بأفضل ما يلقى المضيف ضيفه، وأولاني من حفاوته ما يليق بمودتنا.

وإنا لكذلك إذ دخل علينا الشيخ (س) وهو من جيرانه المعروفين بقسوته في معاملات الناس، واستذلال المنتفعين بأعماله الواسعة، وكنت لا أعرف خلاله السيئة إلاَّ من طول ما قصَّه صديقي من تصرفاته المقيتة التي عاش يستهجنها، فلم أتحرك لقدومه لأن مزاجي لا يطاوعني على احترام من يستذل الناس، أو يسيء معاملاتهم.

ولكن صديقي النقّادة النزيه خفَّ في نشاط إلى باب الغرفة، وتقدم يصافح القادم في انحناءة طويلة، ثم مشى بين يديه إلى صدر القاعة، وأبى أن يجلس إلاَّ بعد أن أقسم عليه الشيخ بأغلظ الأيمان.

وعندما جلس نسيني كضيف، ولم يذكرني كصديق، بل أولاني ظهره مشغولاً بتحية الشيخ، وترتيل الألفاظ المنتقاة التي ما تخيلت قبل اليوم أنه يتقن شيئاً منها.

وطال جلوسي دون أن يعيرني لفتة، أو يخصني بكلمة، فهل من الخير لكرامتي أن أطلب الإذن في ترك المكان؟ أم ترى من الخير أن أغادره دون أن أعنى بالاستئذان؟

لقد كنت مجنوناً في رأي الحاضرين وأنا أغادر المكان في توتر واضح. أمّا أنا فلست أرى بينهم عاقلاً يستأهل أن أستبقي معرفته.. أمّا صديقي.. صديقي النقّادة فقد أضفته إلى الكثير من معارفي الذين تنكرت لهم.. وأنا اليوم سعيد بعد أن فقدت رقماً جديداً من أوفيائي الذين استصفيت.

-4-

وصل اليوم الأستاذ ((ل)) من رحلة غاب فيها أكثر من عشرين شهراً، فغصّت داره بالمستقبلين والمهنئين و (هزازي القاووق) من جميع الطبقات.

يعجبني أن يعرف الناس لأصحاب الفضل فضلهم، وأن يعقدوا خناصرهم على تقدير العاملين.. فإن في هذا ما يغري بالتسابق في مجال الصالحات، ولا يعجبني أن يتهافت الناس على مَن لا يستأهل التهافت، فتضطرب الأوزان وتختلط المعايير ويتعذر التمييز.

إنني إذا أغمضت عينيّ ثم فتحتهما على أول من يصادفني في الطريق لأسأله: هل تذكر طغيان الأستاذ ((ل))؟ يؤكد كان يحتل مركزه الممتاز!! قبل أن تغضب

عليه الدولة. فإنني أعرف سلفاً أنه سيستنزل اللعنات في سخاء فياض على ظروف كانت تواتي مركزه الطاغي، وأنه سيحمد الله بأبلغ عبارات الحمد على يقظة المسؤولين الذين وفقوا لإجلائه وانتهوا إلى إبعاده.

إذن ففيمَ هذه الضجة التي تعج الدار بها بين مسلِّمين ومهنّئين ومباركين؟ أهي دليل على نسياننا سيئات الطاغين والظالمين؟ أم هي ظواهر تثبت عجزنا عن التمييز بين الصالح والطالح؟

إن كان الأول فما أجبننا إذا جد أوان الجد، وإن كان الثاني فما أحرانا أن نُضاف إلى طوائف الصبيان نعبث عبثهم ونلعب كما يلعبون.

إن في حفاوتنا بأمثال هؤلاء ما يغري غيرهم بنا، ويجرىء خلفاءهم في المركز على الاستهتار بحقوقنا. سيقول قائلهم ما أهون هؤلاء المساكين.. إن في استطاعتي أن أستغل ضعفهم بما استغله سلفي، حتى إذا أدبرت الدنيا بما أقبلت فليس ثمة ما أخشاه بين طوائف من الصبيان لا يميّزون الصالح من الطالح، وليس بينهم من يملك ذاكرة تعي طرفاً ممّا فعلت، أو لوناً ممّا أجرمت.

سيعج بيتي عند أية مناسبة بالمهنئين والمباركين، وستمشي طوائفهم في ركابي مستجدية كما تمشي النعاج إلى حظائر جزارها.

أتمنى أن أقول للأستاذ ((ل)) :إنك رهين بما كسبت، فلا تطمع في تحيتي، ولكن ما حاجته إلى تحية مجنون مثلي وفي بيته عشرات من الغرف تضج بآلاف العقلاء مهنئين ومباركين؟!

ليتنا نتضافر على ازدراء من يستهين بقيمنا.. فإذا زلّت قدمه أبينا إلاَّ أن نحاسبه على ما فرّط في حقوقنا، لا استغلالاً لزلّته، بل عبرة لمن يخلفه، أو يقلد

مساوئه.. ليعرف هذا الصنف مبلغ يقظتنا لما نعتز به من إنسانيتنا.. ولكننا عقلاء لا ينبغي أن نتشبث بأمنيات المجانين!!

-5-

ما أجمع الناس قط على امتداح شاب كما أجمعوا على امتداح الأخ ((ج)).

كان معروفاً بالتواضع والأدب، وكانت غيرته على الضعفاء من أصحاب الحقوق ونزاهته في معالجة قضاياهم لا تعدلهما غيرة أو نزاهة فيما عرف بين صفوف العاملين في مواكب الحياة.

وإني لأذكر الآن ذلك اليوم الذي تلقى الناس فيه مرسوم تعيينه في وظيفته العالية بالغبطة والسرور، وراح بعضهم يهنىء البعض الآخر بهذا التوفيق الذي أحرزته النزاهة، وظفر به أصحاب الحق من المغمورين في شخص هذا الرجل العظيم.

كل هذا أذكره، ولا أتمنى اليوم شيئاً إلاَّ أن أنساه.. لأنسى آلام الخيبة التي منى الناس بها في شخصه العالي وأخلاقه الرفيعة.

بدأ الأخ ((ج)) عمله الجديد بالروح الطيبة التي تليق بما كان معروفاً عنه.. ولكنه ما كاد يفرغ من خطواته الأولى حتى بدأ الناس يتهامسون بالقصص التي أمسى الرجل ينكر فيها المبادىء. وتناقلوا عنه أنه بات يشغل الكثير من وقته في التماس العطايا التي يدرها عليه استجداء الكبار.. فالتمس له المحبون، وهم كثر، آلاف الأعذار، وقالوا إنها لوثة الغنى ولا بد ممّا ليس منه بد!!

وتتابعت خطواته التالية، فتسامع الناس أنه انطلق يصطفي المنسوبين والمحسوبين.. فيبرهم ويعينهم، فالتمس المحبون آلاف الأعذار، وقالوا إنها من مستلزمات العظمة ولا بد ممّا ليس منه بدا!!

وانطلقت الخطوات بعدها، فتسامع الناس أن غيرته انحبست إلاَّ على الأذناب، والمقربين، وأن نزاهته انطفأت إلاَّ في هوى جامح أو غرض واضح.. فخجل المحبّون وتركوا رؤوسهم تميل يمنة أو يسرة دون أن تجيب أو تفصح.

وتداول الناس على أثر هذا سيرته بآلاف القصص التي تدلل على سيئات ما يقترف، أمّا أنا.. أنا المجنون فلا أزال في مكاني أدرس الفكرة في مظانها الأساسية.

أكان مهذباً متواضعاً قبل أن يتكبر اليوم على أوضاع التهذيب؟؟

أكان غيوراً نزيهاً قبل أن يتغير اليوم على أشراط النزاهة؟؟

أكان عادلاً من أنصار الحق قبل أن يعدل اليوم عن مناصرة الحق؟

أكان قوياً متين الأخلاق قبل أن يمتحنه المركز أم كان قصير الذيل؟؟

أكان معدنه أصيلاً أم هو الزيف غشي سمعته بألوان من الطلاء قبل أن يتعرض الطلاء لاختبار الحك وأعمال التجارب؟؟ إنها دراسات تغمض على أمثالي من المجانين.

-6-

جاءني يشكو مر الشكوى من شقائه بعمله، وتربص رؤسائه به.

قلت له: إنه لا بد لك من هذا الشقاء ما دمت تشعر أن لك ذاتية يجب أن تعتز بها، وأنك شخص قائم بنفسك، لك كيانك المستقل وشخصيتك السامقة.

إنهم في العادة لا يغفرون لك هذا الاستقلال الذاتي بعد أن ألفوا أنواع الخنوع وفناء الذاتية من سائر أقرانك.

وقلت: أترى الآلات الكاتبة فوق مكاتبها عندكم، كيف تسلس لكل حركة تضغطها وتستجيب لكل لمسة تصادفها فتطبع الحروف، وتهيئ الجملة، وتنشئ السطر دون أن يكون لها حول فيما كتبت، أو مساهمة فيما أنشأت؟

كذلك يجب أن يكون شأنك بين يدي من تولّى أمرك من الرؤساء أو أنصافهم أو أرباعهم، لتحظى لديهم بالثناء على خلقك الطيّع، وفناء ذاتيتك فيهم.

وقد تبدر لك البادرة فيواتيك في شأن أعمالك رأي لامع أو خطة صائبة، فلا تظهر بها كمفكر يدري كيف يخدم عمله، بل حاول أن تدسه في آثارهم بلباقة.. لينطبع باسمهم، ويصدر عنهم، ثم دلل به على حذقهم ومهارتهم؛ وثق أنهم سينسون أن الفكرة كانت من بوادرك، ويحمدون لك هذه العناية، وربما حفظوها في سجل العلاوات والترقيات.

أما أنك تريد إلاَّ أن تحدد لنفسك حقها ولشخصيتك كيانها فليس في ذلك إلاَّ أن تفقد ميزتك كموظف مطواع تستجيب للّمسة الخفيفة وتؤدي عملك بالسهولة التي تؤدي بها جميع الآلات.

إنني أعرف أكثر من واحد يعيشون حياتك التي تزهو فيها باستقلالك الشخصي دون أن يظفروا بنجاح يذكر، أو يصيبوا إقبالاً له قيمة، ولعل رؤساءهم كانوا معذورين عندما أهملوهم، لأن نظام الأعمال في الحياة لا يتسع في كل حقل إلاَّ لرأس واحدة تدير دواليب متعددة وآلات بالجملة.

ستقول إني مجنون لا يُعتد برأيي، وإني أقاسمك هذا الرأي وأعرف أن الحياة نفسها لا تواتي غير العقلاء في ألوانهم الخاصة!

-7-

وعندما تقدمت الأيام بصاحبي نسي أنني كنت الوحيد الذي كشفته على حقائق الحياة التي كان مغروراً بها، وأنني أوضحت له خطأه في شعوره بذاتيته واعتداده بشخصيته.

نسي أنه قنع بتوجيهي وأنه قاسى الكثير في إفناء شخصيته وإلغاء ملكاته من الفهم في سبيل رئيسه.. حتى ظفر بما لم يظفر به لو عاش عشرات السنين معتداً باستقلاله، قوياً بإساره.

نسى كل هذا بعد أن واتاه النجاح، واحتل مركزه بين مرؤوسيه، وراح يفرض على مَن حوله الطاعة، وينظمهم كدواليب لها حدودها في دورة العمل.

نسيني إلى الأبد، لأني عندما لقيته البارحة في صفوة من القوم تغافل عن معرفتي!! وأشاح بوجهه عني.!!

إنك معذور يا صاحبي، فلقد كنت بالنسبة إليك عنواناً لمأساة فقدت فيها كثيراً من شخصيتك.

عسى الله أن يعفو عني.. فقد كان جديراً بي أن أتركك لخيبتك وألاَّ أقترف إثم ذلك التوجيه الذي صرفك عن كرامتك، وأغراك بالخنوع الذي درج بك مدارج الرقي.

إنك نجحت يا صاحبي يوم طلّقت كرامتك!!

وإنك طلّقت كرامتك يوم حبوتك توجيهي.

لهذا فأنا عنوان مأساتك، وسبب آثامك.

انسني يا صاحبي، ففي نسيانك لي راحة لضميرك.. ودعني أنساك، عساني أنسى في ذلك هول ما اقترفت، وعفو الله يسع المجانين كما يسع العقلاء.

-8-

لوثة الغنى حمى شاعت عدواها في صورة لم يسبق مثلها في جميع ما منيت به البلاد من أنواع العدوى أيام الكوليرا والطاعون وعقد الركب.

أكاد ألمس الغنى يسيل في كل عطفة أدخلها أو بيت ألجه إذا استثنيت المتورعين أو قصار الهمم من الباعة والسقائين وعامة الناس من المحدودين والقانعين.

إنني أقتعد شباك نافذتي فأشهد السيارات من أحدث (الموديلات) وأعلى (الماركات) تدرج في أرتال تتلاحق كما يتلاحق النمل في خطوط لا نهاية لأبعادها، فأسائل نفسي: أليس لهذا البطر نهاية؟

رحم الله أبي يوم كان يعرف قدر الرجال من نظره إلى (حمار الربيطة) المشدود إلى مذود القصر، أو منظر البغل في أردافه العريضة داخل الإسطبل.. أمّا اليوم ففي كل عطفة أرتال في الربائط لا تدري كيف تميز بين أقدار أصحابها، أو تتعرف إلى الفوارق بين مراكزهم من الجاه والغنى.

عظيمة هذه الديمقراطية الشائعة بشرط أن لا تشوبها لوثة أو تلوّثها شائبة.

حبذا الغنى الشائع بشرط ألاَّ تتطوّر عدواه فينسى المحمومون وسائله المشروعة، ويتهافتون عليه دون أن يفرقوا بين الجائز والمكروه.

كنتُ أعرف صديقاً يتقاضى من عمله ما يكفيه أود بيته، ثم رأيته يثرى فجأة، ويتألق ثراؤه في قصر يبنيه، وسيارة يقتنيها، وخدم يصطفون لانتظار ما يأمر.. فسألت جاره، فقال: إن دخله ممّا يعمل لا يسد حاجة الخدم فضلاً عن ألوان الترف الأخرى.

قلت: إذن فالأمر مكشوف، ولا آمن أن تتفتح العيون عليه.

قال: إنه قد أعد عدته لما يمكن أن يكون، فهو لا يخشى منذ اليوم، لأن في خزائنه الجديدة ما يغنيه إذا أدلهم الخطب.

قلت: ولكني كنت أعرف كبرياءه على مثل هذا.

قال: إنه معذور فقد رأى الغنى يعانق زملاءه، ومرؤوسيه في العمل، ورأى نفسه يعاني مقتضيات الحياة الجديدة وحده، فنزعت نفسه إلى مجاراة الغير.. فأبى أن يسلس في بادىء الأمر ولكن المقاومة كان لا بد أن يكون لها حد يسقط بعده الحصن وقد سقط الحصن بعد لأي طويل، واحتل الجشع مكان الصدارة التي كان يحتلها الكبرياء، واستحال الرجل في أثر ذلك إلى ما ترى.

وعرفت بعدها رجلاً كان يعلم أنه من المنسيين في العلاوات والترقيات.. ولكنَّ عزة نفسه تأبى عليه أن يعترف بما ناله من النسيان، وكان طابعه الذي يتميّز به بين زملائه ترفعه عن الدنايا، وإيلام الطائشين بأبلغ ما يتسع الإيلام.. وكنت أراه يغتنم دقائق الراحة من عمله فيهرع إلى مصلى قريب يتوجه فيه إلى الله

بركعات خاشعة، ثم يتناول مسبحته ويشرع في ترتيل صلواته في خشية وتبتل.. حتى إذا فرغ من الراتب استأنف عمله بروح التقي الفاضل.

وظل على هذا إلى أن خطبته جهة معينة لعلّها كانت ممنونة بما خطبت، ولعلها كانت تشعر بحاجتها إلى الكفء الرفيع عن دنايا الحياة.

وغبتُ عن صاحبي سنوات زرت بعدها الجهة التي انتقل فيها عمله، فعنَّ لي قضاء السهرة في بيته، فما كدت أسلّم عليه حتى راعني الجو السائد في قاعته.

وقضيتُ ساعتين أدركتُ فيها مبلغ الطيش الذي انتهى إليه صاحبي، ورأيت من مباذله المكشوفة في غير خجل ما تهون بجانبه جميع مباذل الطيش التي كان يعيبها على غيره.

قلت لزميل له يرافقه في العمل: شد ما أسأتم إلى الرجل في أخلاقه. فقال: إنه بطر الغنى وإساءته قبل أن تكون إساءتنا.

هذه ألوان شائعة في آفاقنا فإذا عزَّ على مجنون مثلي أن يناقشها في فهم وأناة فهل يعز على جماعة العقلاء أمر نقاشها؟

-9-

إن فن الضحك ينقصكم.

ونحن جماعة المجانين أسعد حالاً منكم معاشر العقلاء؛ لأن الضحك لا يعجزنا في أي لحظة ننزع فيها إلى الضحك أو نشعر بحاجتنا إليه.

وإنني رغم ما يبدو على قسماتي من تجهُّم، لا أتكلّف كثيراً إذا نزعت نفسي إلى الضحك.. إنه يطاوعني في أي لحظة أخلو فيها إلى نفسي.. فأطلق العنان

فيها لتخيّلاتي وأتركها تلون الحياة أمامي في صور شتى تشيع السرور في نفسي، وتثير في جنباتها الضحك الذي يملأ رئتي بالهواء، ويسوق الدماء في شراييني نشيطاً ليؤدي دورتين كاملتين مكان الدورة الواحدة.

فهل يملك العقلاء منكم مثل هذه المَلَكَة في اصطناع الضحك إذا عزّت أسبابه عليهم؟ وهل يرضون أن يغذوا في التخيلات والأوهام التي نغذ فيها ليهيئوا لأنفسهم من ألوان الضحك ما نهيئ؟

إنهم لا يرضون هذا، لأنهم عقلاء، والمجانين وحدهم هم الذين يرضون أن يضحكوا لأسباب متخيّلة موهومة.

لا بد لكم من الضحك.. والضحك الجدي الذي تجدون أسبابه مهيأة قابلة للضحك.

لا بد لكم من الضحك، لأن سأم الحياة وضجرها يدعوان إلى الملل، ويسيئان إلى دورة الحركة الدموية في الجسم.

لا بد لكم من الضحك، لأن العيش الرتيب الذي تنتظمه وتيرة واحدة لا تتجدد ألوانها، ولا تتغير مناظرها! شيء يدعو إلى الركود، ويبعث على السأم ويعوّد الخمول.

لا بد لكم أن تضحكوا لألعاب غريبة أو مشاهد مضحكة أو مفارقات مثيرة.

لا بد لكم أن تضحكوا.. ولو ملك مجنون مثلي إصدار الأوامر لفرض الجنون يوماً واحداً على جميع البلاد، وأباح لسائر العقلاء منكم –إذا كان لديكم عقلاء– أن يلبسوا طراطير من جلود الحيوان، وألا يستروا أجسامهم بغير أوراق

الحناء وأن يحملوا على أكتافهم عرائس الخشب بعد أن يفتنوا في زينتها ويبالغوا في إعدادها للضحك.. والضحك المثير العالي.

لا بد لكم من الضحك، وقد سبقكم إلى هذا طوائف الضاحكين في عيد الماء، في الهند فهم يتراشقون به في ساحات المدن دون أن يستثنوا كبيراً له مقامه المرموق، أو وجيهاً له سمته الوقور يحتالون بذلك على إثارة الضحك وإشاعته بين عموم الأوساط.

وسبقكم إلى هذا أمم لها مكانتها، يحتفي بعضها بلعب (البالونات) في عبث يزيد عن عبث الأطفال، ويتفنن غيرها في إجادة أنواع من التنكر يخفي أشخاصها، ويثير فيها ألواناً من المفارقات، يحتالون بذلك للضحك والضحك المثير.

ماذا يمنعكم أن تضحكوا ما دام الضحك ضرورة لازمة لسروركم، ووسيلة نافعة لاستنارة نشاطكم؟؟

اضحكوا ما وسعكم الضحك، وهيئوا لأنفسكم من أسبابه ما وسعتكم التهيئة، وإذا عجزتم فلا أقل من أن تبيحوا لخيالكم ألواناً من الأوهام تثير فيكم الضحك الذي نتمتع به نحن معاشر المجانين.

-10-

ما أسخف من يقضي حياته محدوداً لا يعقل الأشياء إلاَّ في الحيِّز الضيق الذي ورثه من طبيعة عمله أو حدود بيئته.

يفخر ((س)) بأن :((حدّه حدّ نفسه)) ..وأنه رجل من البيت إلى الدكان، ومن الدكان إلى البيت!

ما أسخفك من رجل ضيّق الذهن في صورة لا يقبلها مجنون مثلي محدود العقل في نظركم!

إن حياة الإسلام عاشت قبلنا مئات السنين تتجاذب وتتدافع فكرياً وعملياً حتى أنتجت ألوف النظريات التي عرف الأوروبي كيف يتسلّح بها وهو يخوض غمار الفكر والإنتاج.

فلو وقف التجاذب يومها والتدافع بين أعلام الفكر وأساطين الفلسفة وكبار علماء المذاهب لما احتك العقل، ولما استطاع أن يمارس أعماله اليوم في نشاط.

ولو وقفت تلك الأجيال تدَّعى أن ((حدّها حدّ نفسها)) وأن الرجل يكفيه أن يكون رجلاً ((من البيت إلى الدكان، ومن الدكان إلى البيت))؛ لتعطلت أعمال العقل، ولما استطاعوا أن يخلّفوا لنا هذه الأرتال من الأعمال الفكرية والمذهبية، وهذه النظريات التي أعدت العقول لما تتمخض اليوم عنه من إنتاج.

إننا لا نبالغ إذا ادّعينا أن جميع أحداث الحياة التي لا تزال تغير أوضاع الأرض، وترسم خرائطها في أشكال وصور ينسخ بعضها البعض، وأن جميع ما دال من دول، وما قام على أنقاضها من أمم، وما طرأ على قارات الأرض من جزر ومد، وحروب ومطاحنات، لم تكن إلاَّ نتائج نظريات عاشت في رؤوس المفكرين قبل أن تأخذ سبيلها إلى العمل، وأثراً من آثار ابتكارات اخترعتها عقول لم تكن ضيقة الحدود.

إن خارطة اليابان في ألوانها الأخيرة لم ترسمها جنود الحلفاء على كثرة عددها، وإنما رسمها عقل واحد استطاع أن يستخدم الذرة في ((هيروشيما)) مدينة اليابان الصناعية.

وإن حضارة أمريكا اليوم التي هيأتها للإشراف على الكرة الأرضية لم تكن في أحد الأيام إلاَّ عقولاً واسعة الآفاق خصبة الإنتاج، استطاعت أن تعدها للمركز العالي العظيم الذي تزهو به اليوم على الممالك والأمم.

فلو ضاقت أذهان المنتجين عندهم والتزم كل مفكر حدَّ نفسه، لا يطمح إلاَّ للعمل المحدود بين دكانه وبيته لما كانت أمريكا اليوم، ولما كان لها هذا الشأو الذي تُملي به إرادتها على الحياة.

أتراني مجنوناً أهذي، أم هي حقائق يجب أن نصيخ إليها، ولو صدرت من أفواه المجانين؟

-11-

ليست الجريمة أن تذنب في ملكوت الله الذي يسع المذنبين؛ ولكنَّ الجريمة التي تحتل رأس القائمة بين أعمال الإجرام. أن تربطني إلى عجلتك، وتفرض آراءك على مَلَكَاتي فتعطلّها، وتحجر على أفكاري فلا تبيح لها أن تحلق إلاَّ في حيِّز حددته خطوطك.

إن العقل المتمدن جامح الخيال، رحب الأفق، لا يذكيه إلاَّ أن يحتك بالشواذ والمناقضين والمخالفين ليجمح جموحهم، ويمرن مَلَكَته على مناقشة آرائهم،

وعندئذٍ سوف لا يربح ما اعتنق من رأي بقدر ما يربح تمرين نفسه على الاستنتاج والاستنباط.

إن العقل المرن الذي نرى أثره في أحدث ما ابتكرت الأفكار الجبّارة لم يكتسب مرونته من نظريات تلقّاها من أساتذته في صيغ محدودة لا تقبل النقاش، ولا تتسع للتناقض، بل كانت ممارسات توحي بالتوجيه وتثير الاستطلاع وتمرّن ملكته على الإبعاد في أجواء قد لا يعرفها أستاذه.

إن النهضات الفكرية في تاريخ الأرض لا تتوقد جذوتها إلاَّ إذا استطاعت أن تذكي روح البحث في جماهيرها دون أن تبالي بما يلامس ذلك من خلاف وفوضى، لأنها أعاصير تدل على ألوان من النشاط لا تلبث أن تستعر وتسلك سبيلها المنتج في الحياة.

أمّا الركود على ما قِيل، والبقاء على ما عُلم، وتحديد البحث بما استخرجه الغير.. فذلك حجر لا يفتق ذهناً، ولا يعد العقول للابتكار والاختراع

-12-

سمعت عاقلاً يقول لي: ألا تتعب من طول ما تقرأ؟؟

قلت: إنها مأساة الجيل بيننا.

إن معارفنا في الحياة لا تزال إلى اليوم محدودة لا تخرج عن نطاق المواضيع التي أعدتها المدارس، أو نشرتها المطبوعات المتداولة.

إن الفقير الذي يعيش مسروراً بكوخه المحدود، غير الفقير الذي يضيق بهذا الحيز، فنزِع نفسه إلى فضاء الله الرحب، يتنسم فيه هواءً جديداً ويبيح لرئتيه أن تأخذ حظها من أفقه الشاسع.

إن كتاباً جديداً يقوى على نقلي ممّا ألف من معارف الجيل إلى أفق أرحب وأفكار أخصب، لهو هزة ذهنية تنشط ما ركد من أفكاري وتدفع بي إلى دنيا جديدة أعيش بها مع غير جيلكم.

فهل يستبيك مثل هذا الجنون؟؟

-13-

هل وُجد بيننا المؤلِّف الذي يهيئنا للنضج الثقافي، ويثير فينا ألواناً من التساؤل؟

هل وضع بين أيدينا الكتاب الذي لا يقرر الفكرة بقدر ما يشكك فيها، ليبعث فينا حب الاستطلاع؟

هل ظفرنا إلى اليوم بالمعلّم الذي يدرِّس البحث ليسنده إلى أصحابه، ثم يستخرج أمامنا ما يترتب على نقضه فيلهب ذكاءنا ويهيئنا للدراسة والنقد؟

نحن في حاجة إلى هذه اليقظة المجنونة لنعد بعدها الجيل العاقل.

-14-

وكلنا تربيتنا من ألف سنة إلى أشباه الكهنة الذين لا يفقهون في الدِّين إلاَّ ما لفقوا من أساطير، ولا يعرفون من وسائل الرقي إلاَّ كرابيج تنال الظهور والأكتاف.

فهل آن أواننا لنناقشهم هذه الأساطير، ونفتح عيونهم على عمق المصير الذي انتهى إليه استبدادهم؟

-15-

يموج العالم اليوم في عباب مصطفق تشترك فيه الأفكار من كندا، فيسمع صداها في الكونغو، كأن أقطار العالم لا تفصلها حدود، وكأنّ ملايين البشر في قارات الأرض لا تفرقها جنسية، فما بالنا ننأى عن هذا الخضم المائج، ونعتزل في أكناف جبالنا منفردين؟

نحن في حاجة لأن نصطفق في موجة تتفاعل مع موجات الخضم، ونترك أثرنا يتجاوب مع آثار الآخرين في مجالي الحياة. وإذا استطعنا أن نحدث ضجة لها قيمتها في العلوم الموروثة، أو نزعزع لوناً من الأفكار المتداولة في أركان الأرض، استطعنا أن نثبت وجودنا ككائن له قيمته بين أجناس الأمم.

-16-

ليس ناضجاً مَن لا يميّز بين الدروس التي تلقّى علومها، والعلوم التي دُرس حقائقها.

ليس متديناً مَن لا يسمو تدينه إلى حب الخير ومساعدة الآخرين على العمل في سبيل حياة أرقى وأفضل.

ليس أديباً مَن يدرس حياة الشعر، ويترجم لزهد أبي العتاهية ومباذل أبي نواس وبين عينيه مجاعة الهند، وحاجة هذيل إلى بناء المدارس، وتعطش غامد إلى استنباط المياه، وآلام المشردين في أطراف فلسطين، والملونين في أقاليم أمريكا.

ليس معلماً مَن لا يلتمس مَواطن القوة فيمن يعلم.. فيساعد على كشفها ويذكيها ويعدها للعمل.

17-

سعيد طفل أناني!

جميل ولد كاذب!

صالح فتى غشاش!

محمد شاب سارق!

حامد رجل قاتل!

أمّا أنت فأي نعت من هذا تستأهل؟؟!

أتحلف أنك لست أنانياً؟، وأنك لا تقبل لنفسك الكذب؟ وأنك لم تتعود الغش والسرقة؟ وأنك لم تقتل في حياتك إنساناً؟

حاول أن تكون جريئاً ولو في ذات نفسك، لتسر إليها ولو لمرة واحدة بحقيقة الحال.

حاول أن تتذكر: هل زاحمت مرة في مجالي الرزق، أو استطعت بلباقتك أن تستأثر بأرباح حرمت بها كثيراً غيرك؟؟ إذن فأنت شجاع، وأنت إلى جانب ذلك أناني!

وهل جابهك موقف محرج، فدافعته بكلمة لا تعتقد شيئاً من صحتها؟؟

–إذن فأنت ذكي، وأنت إلى جانب ذلك كاذب!

وهل ضايقتك سلعة ورأيت أحد البله يفاوضك في شأنها، فنسيت أن تذكر عيوبها؟

–إذن فأنت محظوظ، وأنت إلى جانب ذلك غشاش!

وهل أثارك العناد، فقاضيت خصمك حتى ظفرت بما لا تستحق من الظفر؟؟

–إذن فأنت عظيم، وأنت إلى جانب هذا قاتل!

* * *

تذكر حوادث أيامك، وناقشها في غير مواربة، لتستخلص منها حقيقة نفسك.

أكنت إنساناً أنانياً أو كذاباً؟

أكنت سارقاً أو غشاشاً؟

وهل كنت في أحد الأيام قاتلاً؟

أمّا أنا فلا أبرىء نفسي من كل هذه الآثام.. ولكني مجنون، وليس في شريعة الله ما يؤاخذ به المجانين.

وسلام الله على عيسى فقد جيء إليه بامرأة أمسكت وهي تزني، وقيل له: إننا نطالب برجمها، فأطرق ملياً ثم قال: مَن كان منكم بلا خطيئة فليرجمها بحجر. ولما رفع رأسه لم يجد أمامه غيرها.

لعلّهم خجلوا!! –فما يمنعنا أن نخجل؟!

-18-

زوَّج جاري أختاً له.. وكانت أرباحه اليومية لا تتجاوز عشرة ريالات، فأبى إلاَّ أن يقترض ليبسط يده في حفل الزواج!! وكان في استطاعته ألاَّ يتوسع فيما يقترض ليضمن سداداً في نطاق دخله المحدود، ولكنه أبى إلاَّ أن يقلد الموسرين ويجاري المترفين.

ومع هذا فأنا وحدي المجنون.

ودعا الكثير من جيراني إلى حفل العرس، فلمست أثراً لحركة فيما يجاورني من بيوت، وأخذت أسمع ألواناً من المشادة والصخب تضج بها عائلاتهم.

هذا عبده النجار تأبى زوجه إلاَّ ثوباً من النوع الممتاز الغالي.. ويحاول النجار أن يقنعها بمركزه كنجار، ولكنها لا تقنع، فتتأزم الأمور!!

وهذا صالح (المطبقاني) تفرض ابنته عليه أن يشتري لها ثوباً وشّاه أصحابه بالقصب البراق، وعرضوه للأجرة بأثمان لا تتفق مع أسعار التكاليف.. فيعارض في هذا الغبن فتقوم المشادة!!

وهذا سليم الطباخ، تحاوله أمه ليفاوض أصحاب الزفة، لأن أخواته الصغيرات (على وش فرح)، وتسرد له قائمة بأسماء المشتريات التي يجب أن يعدها ليوم الفرح.. فيعتذر بضيق اليد فلا ينهض ضيق اليد بالعذر، فيعلن الصخب!!

وهذا محسن (كمساري خط البلدة) يملي عليه أهلوه أسماء الحلِي التي يتعين عليه أن يستحضرها من مؤجري الحلي، فلا تطاوعه نفسه لاستجابة ما يطلبون.. لأن قطعة الماس التي ضاعت في عرس زميل له في العمل من عامين، لا يزال إلى اليوم يئن تحت وطأة ديونها! ولكن هذا لا يقنعهم ليتنازلوا عن فروض تقليدية فيثور الخصام!!

ويطيع النجار والطباخ والكمساري ما ليس لطاعته من بد، ويحاول صاحب العرس أن يستعصي على ما ينوء بثقله.. فيجد الجد، وتثور الفتنة!! ولا ينقشع الغبار حتى يظفر الباطل لتقاليده، فيُملي أحكامه من غير قيد ولا شرط.

وهكذا يبوء المحتفلون بديونهم المثقلة، ويعود أصحاب العرس ليواجهوا حياة الشظف ومع هذا فليس بين جيراني مجنون غيري.

-19-

عشت أتحاشى المرور من طريق (المارستان) خشية أن يعرفني سجانه بعلامات فارقة فيقبضني إليه!!

ولكني ذهلت اليوم عن نفسي.. فقادتني قدماي من حيث لا أشعر إلى باب المارستان.

وراعني صوت تكسرت في نبراته الحروف يناديني (يا عمي.. ألا تتفضل فتتسامح لي من عمي).

قلت وأنا أطالع فيه وجهاً ذابلاً تنطق الأحزان في قسماته: ما خطب عمك يا فتى؟؟

قال: قاضيته في ميراث أمي فكاد لي حتى أسلمني إلى الحال الذي ترى!!

قلت: وهل تستطيع أن تعدني؟؟

قال: في أي شيء أعدك يا عمي؟

قلت: ألاَّ تعود إلى مكابرة الأعمام والأخوال.

قال: وهل أكابر بعد ما حدث؟

قلت: فأنت منذ اليوم عاقل!! وسأكون من الشاهدين.

-20-

لا أدري متى يسود التفاهم بيني وبين الناس؟

تسلمتني الكتب من نعومة أظافري، فعلّمتني أن الفضائل رهينة بخلال مخصوصة، أطالت في إحصاء أنواعها. ثم زادت فأغرتني بها، أكدت لي أن قيمة الشخص في الحياة وقف على مبلغ ما يحسنه فيها.. فنشأت ألتمس تطبيق ما تعلمت على مقادير الناس فأسأت إلى نفسي بقدر ما أسأت إلى الناس.

يا بعد ما بين ما تعلمت وما طبقت!

أغرتني الكتب بخِلال منها الوفاء، والصدق، وإسداء الخير، والجرأة في الحق.. وعندما التمستها بين الناس وجدتها لا تساوي قلامة ظفر إلى جانب الرياء، والنفعية، وحب الذات، والجرأة في تزييف الحق.

وعندما استعصى وجداني على مسايرة الناس، وأبى إلاَّ أن أثبت على ما تلقنت.. تنكر لي معارفي من جميع الطبقات، وظللت وحدي أدور في فلك الحياة في غير الاتجاه الذي يدورون.. فكان التصادم وكان الاضطراب!!

أنا اليوم أحتقر ألواناً يقدّر الناس قيمتها، وأزدري أصنافاً يجلُّون ميزتها، وأطيل نظري مقتاً لمناسبات فهمت من حقائقها غير ما فهمه الناس.. وبذلك ساءت علاقتي بهم، فأشاعوا عن شذوذي مرة، وجنوني أخرى، ممّا جعلني أرتاب في حقيقتي.

فهل أغرتني الكتب بما علّمتني؟؟ أم ضل الناس بما قدسوا من مثل؟

تلك أمور أسلمتني إلى الحيرة ولا آمن الحيرة أن تسلمني إلى الجنون.

-21-

ما أشد كلف الناس بأذى المجانين!

إنهم يستعرضون قوتهم أمام ضعف المجنون، فتغريهم بأذاه وتشجعهم على التنكيل به وإيلامه.

وليس في هذا جديد، فالأقوياء في كل زمان –مهما اختلفت مشاربهم– لا يحسون بإحساس الضعيف، ولا يلذهم شيء ما تلذهم ألوان التنكيل به.. وأكبر ظني أنه إذا هيىء للضعفاء أن يجتمعوا على قوة تدحض الأقوياء لما تورعوا عما نشكو اليوم من تسلط الأقوياء.

وأن شأن المجانين لا يتنزه عن مثل هذه الوتيرة.

أسألك اللهم أن تحيلني عاقلاً يوم يتسلّط المجانين.

-22-

كنت أعجب لسخاء صاحبي يوماً في السنة وحفاوته بالبذل والإنفاق.

كان يقول لي: إنه (يوم الحول) والحول عنده يوم في السنة يبذل فيه الطعام، إهداء لروح والده، أو تنفيذاً لوصية كان ملزماً بها.

كنت أعجب لسخاء صاحبي.. وهو الإنسان الوفي لقرشه، الضنين بصحبته.. لا يجود به ثمناً لكسرة خبز، لو قيل له إن خبزتك ستهدي الحياة إلى قارة في الأرض.. أماتها الجوع!

كنت أعجب لسخائه مع هذا الإمساك.. ولكني لا أعجب اليوم بعد أن بلوت أبناء الحياة، وعرفت مبلغ انقيادهم لما ورثوا من عادة أو تقليد.

-23-

كان ديوان الانتظار في عيادة الطبيب، غاصّاً بالمرضى.. وقد استبد ببعضهم القلق، وبرح الألم ببعضهم الآخر، وكانت غرفة المعاينة تأبى أن تنفرج إلاَّ بعد لأي طويل لتستدعي شخصاً أدركه الدور.

وكان الحديث بين المنتظرين لا يعدو شؤون المرض، وألوانه وآلامه. وطال الحديث حتى احتدم شيخ مسن كان يحتل ركن الديوان، وسمعته يتساءل في حنق :((هل زادت أنواع المرض بزيادة الأطباء، أم أن شرور المدنية طغت، فزحفت علينا وبلاتها في أنواع منوعة من الأمراض))؟

ولم يواتني مزاج البحث في الخضم المستعر.. أمّا الساعة وقد أويت إلى فراشي الهادىء، فقد تداعت أمامي أركان البحث.

لم تزحف علينا الأمراض بزحف المدنية إلى بلادنا، ولم تزد أنواعها عمّا كانت قبل.. وإنما الطب الذي ضاق نطاقه، وقلَّ مزاولوه رغم تعدد (الدكاترة) الذين كنا لا نجدهم في بلادنا إلاَّ نادراً.

كانت تجارب المسنّين من العمّات والخالات إلى الجدات تبيح لهن مزاولة الطب في حدود لا يأخذها حصر، وألوان لا يحصيها عدد.

كنّ يعرفن آلام البطن والصدر والظهر، وكنّ يفهمن من أنواع الحميات ما يعالج بالخل والنشاء وما يطفأ بالماء.

كنّ يحتفظن في بيوتهنّ بالجنزبيل، والنانخة، والفلفل الأسود، وعقاقير غيرها يعرفن مزاياها وخصائصها.. ولا تستعصي وصفاتها عليهم إلا في القليل النادر.

وكان المسنُّون من الآباء والأجداد يفهمون من أصناف الأمراض، وأنواع الوصفات ما يقوم مقام جزء كبير من أعمال (دكاترة) الطب اليوم.

وكما أن رجال الطب يتخصصون اليوم في أقسام دون أخرى من نواحي الطب، فإن في كهول الجيل الماضي مَن كان يتخصص في نواحٍ أَلِفها، أو توارثها من آبائه وأجداده.

وليس فيما كانوا يصنعون إقحام على مهن لم يدرسوا أصولها دراسة فنية وافية، كما يفعل أطباء اليوم، لأن تجارب الأجيال الطويلة قبلهم استطاعت أن تسلمهم آثاراً واضحة المعالم، وأن تنقل إليهم من أسماء العقاقير ما ثبتت خواصه وشاعت مميزاته.

وكانت تضاف في كل جيل تجارب جديدة تزيد في ميراث التطبيب، وتفتح على ممارسيه آفاقاً تمكنهم فيما يمارسون.. وليس الطب اليوم في أحدث كلياته إلاَّ علوماً هيأتها تجارب سابقة وأعانتها خواص كانت تتكشف عنها العقاقير كلّما زادت الحياة واتسعت آفاق الفكر فيها.

وإذا كان طب اليوم يمتاز بتنظيم الدراسات وتبويبها، وقيد شواردها بفصول نسق العلم صنوفها، وهيأها بحوثاً وافية فإن من أخطاء هذه الدراسات أن أدرج في قوائم طلابها في بعض الأحيان رجال لا تتسع أذهانهم لمناقشة ما يتعلمون في حصافة تهيئهم للتغلغل والاستنتاج.. فقضوا سني دراستهم طلاباً يتلقون،

وأعدهم التلقين لنوع من الشهادات تعوّد التلقين أن يمنحها في شتى نواحي الحياة.. ولهذا لا نجد طبيباً يجاري طبيباً.

يزاول الأول تطبيق ما تلقن على ما يعرض له من حالات المرضى، ويستذكر صنوف ما تعلم ليهيئ وصفاته في ضوئها، بينما يستخرج الثاني نتائجه من أحداثه الحاضرة، وتبيح له حصافته أن يشارك بعقله فيما يصادفه من جديد مشاركة لا تحدها قاعدة. ولا يقيدها تلقين.. فلا يرفع يده من فراش المريض حتى يترك أثرها مدوناً.

أمّا زميله فيبقى حيث كان لا تدل عليه غير لوحته، ولا تميزه غير الحقيبة التي يكلف أقارب المريض أن يحملوها خلفه كعنوان لمركزه أو شاهد لمهنته.

أمّا أصحابنا من أهل التجارب في الجيل الماضي فليس بينهم من يستطيع درج اسمه في قائمة (المطببين بالتجارب) إلاَّ إذا هيأته ذهنية ممتازة، تتسع آفاقها لشتات القواعد التي ورثتها الأجيال دون أن تقيدها دفاتر، أو تحصيها مذكرات، ولا يجاري أمثال هذا الشتات إلاَّ عقل له حصافته وله قدرته على مشاركة الحياة ومناقشة ما يصادفه فيها.

والطب في رأيي تشخيص وتجارب أكثر منه علم وقواعد.

لست رجعياً يلذ لي استجرار القديم لمحض قدمه، ولا متأخراً أشايع تطبيب الجهلة على كثرة أخطائهم.. بل كنت ولا أزال أقدر المجهودات التي تبذلها المعرفة، وأعرف قيمة البحوث التي عاش العلم يتابع دراستها، ويقيد قواعدها في فصول أوفى تنسيقاً.. وأبلى في سبيل ذلك خير ما يبلي المجاهدون في آفاق الأرض.

ولكني إنسان لا يجرؤ على نسيان الذهنية المحدودة التي تتجلّى أحياناً في تصرفات بعض مَن يحمل الشهادات العالية من الأطباء، وقصورهم أمام كثير من الحالات التي تتطلب الحصافة ونشاط العقل أكثر ممّا تتطلب من القواعد المحفوظة والبحوث المكتوبة، كما أنني لا أجد في نفسي ما يبرر غمط بعض أشباه الأميين الذين توارثوا كثيراً من التجارب، واستطاعوا، ولا يزالون يستطيعون، أن يشاركوا بعقولهم في بعض الحالات المرضية ويفيدوها عملياً من حيث عجز المتخصصون من أطبائنا.

أُصبتُ مرة بما يشبه السلس في بولي، فكنتُ لا أنتهي من التبول حتى أشعر أني في أشد الحاجة إلى استئنافه مرة أخرى، فأكابد في إرهاقه ما يؤلمني، وعندما راجعت الأطباء واحداً بعد آخر، تعدد تشخيصهم، وكثرت أوصافهم وعانى جيبي في سبيلهم ما لا أحتمل، دون أن تنالني فائدة أو ما يشبه الفائدة.

وعندما طال ترددي على بيوت الأطباء وعياداتهم وصيدلياتهم دون أن يبرق في أفقهم أمل، شكوت أمري إلى صديق كهل، تعود أن يزاول تجاربه بين عدد من الطبقات الشعبية فبادرني بضحكة صفراء، وأسرع في لهجة الشامت يؤنبني :((إنهم جهلوا تشخيص المرض، فأخطأت وصفاتهم، ولو حاول واحد مثلي علاجك لتأففت وتكبرت)).

قلت: ولكن ليس لي أن أتأفف ولو على سبيل التجربة بعد أن أخفق طب الدكاترة.

قال وقد شرع يعبث بأطراف لحيته المدببة :((إن ما تشكوه برد في المثانة لا يكلفك أكثر من أن تنقدني نصف ريال أبتاع لك به من دكان العطار بعض العقاقير التي تشيع فيك الدفء أول استعمالها)).

نقدته المبلغ، وتعاطيت الذي أمرني، ولم تمض إلاَّ نحو ساعتين حتى أصبحت في نهايتها لا أشعر بشيء ممّا كان يضايقني.

فكيف فطن الأميّ إلى تشخيص مرضي بعد أن عجز عن تشخيصه بضعة أطباء؟.. وأي معنى في هذا الدواء الذي لا يكلف أكثر من نصف ريال دون أن تشوبه (فيزتة) أو يسبقه أتعاب؟

ليس من يشك في أن للتجارب قيمتها التي لا تقل في كثير من الحالات عن القيمة العلمية التي يظفر بها بعض أطبائنا.

وليس من يشك في أن المران العقلي يهيئه للمشاركة في دراسة ما يصادفه من أحوال المرضى، ويعده لاستنتاج ما يتعذر استنتاجه على الأذهان المكدودة، أو الآفاق المحدودة.

أعود فأكرر أني لست رجعياً يشايع الأمِيّة ضد العلم، ولكنّي أمام مدهشات، لا حصر لعددها لو أردت استقصاءها أمثال هذه القصة.

وليس لي من الجرأة ما يحملني على إحالة هذه القصة وأمثالها على الصدف، لأن تفسير معاني الصدف لا يتسع ليشمل أعمال المجربين من أمثال هؤلاء، وقد رأيناهم يبوبون أحوال المرض ويفهمون لكل باب أقساماً لها أعراضها وطرائق علاجها.

وهم بعد هذا لا يغالون لفنهم إذا سمّي ما يزاولونه فناً.. فحسب الرجل أن ينجح في رأي مريضه وأن يسدي إليه كلمة طيبة.

إنهم لا يبالغون في طلباتهم للأتعاب، ولا يرهقون مرضاهم بقوائم تعجز عنها الجيوب، ولا يطمعون أن تتعدد الأتعاب بتعدد المراجعات، أو تتجدد النفقات بتجدد الوصفات.. حسبهم لما يبذلون كلمة طيبة أو جعل محدود، أمّا وصفاتهم فلا تتعدّى مرة دكان العطار، ولا تخرج بنودها عن القروش إلاَّ في النادر.

هؤلاء أطباء الجيل السابق كانوا وليس لتعدادهم نهاية.. وكانوا لا يحدهم مكان أو زمان، فمنهم الممتهنون في مداخل بيوتهم، أو مجالس دكاكينهم.. ومنهم مَن تصادفه في الشارع، أو القهوة أو في طريقك للمسجد.. ومنهم مَن يخالطك في بيتك بين عماتك وخالاتك أو جداتك.

كل هؤلاء كانوا يتقاسمون المرضى في غير تكلّف، ويبذلون لهم من تجاربهم ما لا يتعسفون من أجله، أو يرهقون في سبيله الجيوب لهذا كانت العيادات العامة إذا وجدت لا تغص بالزحام الذي تغص به العيادات اليوم.

إذن فالأمراض لم تكثر لأن مدنية اليوم تغزونا، ولم تزحف علينا مساوئها بما نشكو من أوجاع.. وإنما هو التجديد الذي حدد لنا أبواب الأطباء، وتركنا نتزاحم في عياداتهم.

إن مرضانا يمكنهم أن يعالجوا ما يشكون بأوصاف شعبية يملكها العطار، ولا يزال يحفظ وصفاتها كهولنا وعجائزنا، ولكننا فقدنا الثقة التي كان يجدها آباؤنا عند مجربيهم، ونيطت آمالنا قسراً بأطبائنا الجدد.

إنه يكفينا لتخفيف الضغط على عيادات الأطباء أن نجرب ما يصفه عجائزنا، وألاَّ يلجأ اللاجىء إلى عيادة رسمية إلاَّ بعد أن يفقد الأمل ويعجز من الاستفادة.

ليس من رأي المجنون أن يهدم العلم قواعده، أو يلغي المتمدنون كليات الطب في جامعاتهم، ولكنه يتمنى أن تعرقل المساعي الشاذة فلا يظفر طالب الطب بمقعده في الكلية إلاَّ إذا تميّز بذهنية متوقدة، تناقش النظريات قبل أن تقنع بها وأن لا يتكبر العلم على مجرب ثبتت كفاءته، واستطاع أن يدلل على نضجه بوسائل فعالة لا تقبل الجدل.

تلك نزوة مجنون أرجو ألاَّ تثير الضحك في صفوف العقلاء، وأن تجد بعض الآذان التي تصيخ إليها عملاً بقاعدة ((خذ الحكمة أينما وجدت)) وقد وجدت اليوم بين شفتي مجنون!!

-24-

شكت امرأة من أهالي مونتريال زوجها للقاضي، وطلبت الطلاق منه، لأنه في زعمها رجل مجنون!! متناقض المنطق!! ولما سألها القاضي عن دليلها قالت:

إنه معلّم اقتصاد سياسي، ويكرر في دروسه ومقالاته وأحاديثه معي ومع سائر الناس أن النقود في الوقت الحاضر لا قيمة لها، ولا تساوي شيئاً.. ولكنه في كل مرة أنفق فيها شيئاً من النقود في لوازمي، يقيم الدنيا ويقعدها، لأني أبدد أشياء ثمينة في سبيل أشياء لا قيمة لها.. فكيف يتفق رأيه مع فعله؟

وفي هذا ترى المرأة أنه لا عقل إلاَّ حيث يتفق الرأي مع الفعل. وهي قاعدة إذا التزمناها تعيَّن علينا أن نحذف من بنود العقلاء ألوفاً لا عداد لها.

إن الموظف المحترم يردد في جميع مجالسه الخاصة غناه عن وظيفته، وأنه لا يزاولها إلاَّ مجاملة لمن يلحون عليه بها، حتى إذا خلا بأصحاب مسؤوليته تغيرت النبرة واختلف الأسلوب.

وإن المطوّف يقسم من الأيمان أغلظها أن أعمال الطوافة لا تتفق مع ما عنده من ميول، حتى إذا واجه العمل نسي الفكرة وتغافل عن أيمانه المغلظة.

وإن روّاد الحياة عندنا على مختلف مراكزهم يتحدثون لك في إسهاب عن شجاعتهم وجرأة مواقفهم حتى إذا جد الجد تبخرت دعاواهم وتقلصت حقائقهم.

25-

قال لي صديق:

((أترى صاحب هذه الدكانة؟ إنه يغري طالبي الإحسان بالتجمع حوله، ليبدو أمام الناس سخياً كريماً)) ..فاستنتجت أن صديقي أبعد الناس عن السخاء.

وقال لي آخر:

((أترى فلاناً ينفق في غير اتزان؟ إنه أمين صندوق إحدى الشركات، ولا أستبعد أن يكون قد استحل لنفسه من أموالها ما لا يحل)) فعلمت أن محدثي يطمح إلى أموال يستطيع اختلاسها لينفق في غير اتزان.

وقال لي غيره:

((أترى جارنا وقد تسلم ميراثه الجديد.. إن في استطاعته غداً أن ينشىء له مكتباً تجارياً يضرب به على كثير من أصحاب المكاتب، فأيقنت أن مخاطبي بعيد المطامح، وأنه لا ينقصه لكي يحدث دوياً في أوساط التجارة إلاَّ أن يهيأ له بعض المال)).

إنها أحاديث عابرة تستمع إلى كثير من أمثالها في كثير من المناسبات، وهي في رأيي لا تدل على حقائق مَن نغتابهم أو ننقل عنهم بقدر ما تدل على حقائقنا المكبوتة.

إن في استطاعتك أن تقرأ جميع أفكار زملائك من مبادلتهم في الحديث، فالنفوس المطوية على خبث أو خداع أو أفكار فاجرة لا تراقب من أعمال الناس إلاَّ ما يتفق مع ميولها، أو يصلح تفسيراً لرغبات مكبوتة في ضمائرها، وليس كذلك النفوس المطوية على الطيبة والفضل والأمل الباسم، لأنها لا تراقب في الناس إلاَّ ما يفسر بالطيبة والخير ولا تلاحظ من أعمالهم إلاَّ ما يتفق ونزعاتها في الحياة.

ليس من آيات العقل عندي أن أسلّم بكل قصة تنال شرفك أو سمعتك، أو أؤمن على أي حديث يصلني عن مزاياك العظيمة.

وإنما آية العقل عندي أن أسمع في أناة إلى ما يرويه الناقل، وأن أراقب في خلال ما يروي ما يمكن أن أراقب من أهوائه وميوله، عساني أستطيع أن أستنتج لون الحقائق ممّا خفي وراء الكلمات.

قال لي رئيس إحدى المدارس وقد رأيته يؤنب طالباً في مدرسته:

إن هذا الطالب يتمنى الوقيعة بإخوانه، وليس لديه من وسائل الوقيعة إلاَّ أن يتهمهم بشرب الدخان، فإذا فسرت حبه للوقيعة بما يعتمل في صدره من خبث فكيف أفسر اختياره لتهمة شرب الدخان؟

قلت: إنه إمّا أن يكون مفرطاً في عداء الدخان أو مغرماً به إلى حد الهوس فالتمس أحد الأمرين فيه، وقد التمسه حتى وضع يده على ما قلت.

تلك آيات العقل في رأيي ولعلها من آيات جنوني في رأي الآخرين.

-26-

مات ولده الصغير فعمَّ الأسى ثلاثة أرباع المدينة، ومشت حاشيته العريضة، ومريدوه من عموم الطبقات في زحام حاشد لا تجد فيه مكاناً لقدم، وغص بيته ليالي المأتم بجماهير لا يأتي عليها وصف.

ولم يمهل الوالد الحزن إلاَّ أياماً لحق بعدها بابنه المسكين، وجاء من يبلغني الخبر، ويستعجلني لندرك مأتم الجنازة.

قلت يا صديقي: إنني عانيت من زحام جنازة الصغير ما ضيّق أنفاسي، فأي إرهاق سينالني في جنازة الأب؟.. إن الزحام سيتطور إلى أضعاف ما شهدناه في جنازة الابن، فدعني لشأني والله يتولّى عظماءنا بما يريد.

فما زاد على أن ضحك وقال: إذا قيل إنك مجنون بعد اليوم فلا تناقش.

قلت: وهل فيما يبدو لك الساعة ما يدل على جنوني؟

قال: نعم فإنك لا تحسن تقدير الأمور، ولو أحسنتها لعلمت أن المتزاحمين بالأمس في جنازة الصغير كانوا يرجون الجميل عند أبيه العظيم.. أمّا اليوم وقد

مات العظيم فأي جميل يرجوه الناس عند ورثته من الأطفال؟.. هلمَّ بنا وسترى أنك تمشي في جنازة أكثر ما عرفت تواضعاً!!

وعندما مضينا لم تتعثّر أقدامنا في الكتل البشرية التي كانت قد تعثّرت فيها من قبل!! ونظرنا فإذا صفوف الحاشية لا يملؤها إلاَّ شخصان! أمّا المريدون، وأمّا الأتباع فقد حلَّ محلهم نفر من السوقة، وعدد من مجاذيب المآتم، ورجل من المتطفلة تعوّد أن يتبع الجنائز إلى مأتم الأكل.

قلت: أشهد أني أقل منك عقلاً، وأنك أفضل مني فهماً لتقدير الأمور.. وأنك مع هذا مجنون، تمشي في جنازة تخلف عنها سائر العقلاء.

-27-

ما أعمقها ساعة قضيتها على كتف الهضبة المطلة على منحدر الوادي.. حيث تتجمع السيول في أخاديد لا غاية لأغوارها، وتتناغى العصافير فوق أدواح لا نهاية لآمادها.

كنت في جلستي عميقاً كأغوار الأخاديد، بعيداً عن نفسي بعد ما بين عينيَّ من آماد، منطلقاً عنها انطلاق العصافير فوق الأدواح.

وشاقني عصفور نشيط الحركة، خفيف الظل.. أبى إلاَّ أن يأتنس بهذا المتوحّد. ولعل في عالم العصافير من يشوقه أن يتطفل كما في عالمنا.. ليستكنه حقائق من ترامت حقائقه، وينزه فؤاده في مدخل أسرارهم، وما غمض من خفاياهم.

قلت: يا عصفوري الجميل. هل تلذك النجوى؟ وهل يعجبك أن يناغيك المتوحِّدون؟

إنني أحسدك على هذا الانطلاق الذي لا تحده غاية، ولا يقف دونه مدى.

أليس بينكم يا عصفوري الجميل عاقل يقرر لكم الأوضاع، ويضع الحدود.. فلا ترفرف إلاَّ في حين!! ولا توصوص إلاَّ في نطاق!! ولا تخفق بجناحيك إلاَّ في حدود!! ولا تلمس بمنقارك إلاَّ في مقياس؟!!

إننا معشر بني الإنسان مصابون بعقلائنا أكثر ممّا نحن مصابون بأقوى الجوائح فتكاً في الحياة.

إن عقلاءنا يجيدون تخطيط الحدود، ويتقنون تلوين الأرض.. فأنا وليد شعب أسمر لا يمت بصلة إلى شعوب أخرى تختلف ألوانها من الأحمر إلى الأبيض إلى الأسود.

وأنا في عرفها وليد قرية تتبع قطراً في أواسط الشرق لا يمت بصلة إلى بقية الشرق من أدناه إلى أعلاه، ولا تربطه علاقة بأي جزء في بقية أركان الأرض.

فهل بُليتم بأمثال عقلائنا من أساتذة التخطيط، أم أنتم سادرون في غفلتكم، منطلقون في أوسع ما تنطلق فيه أجنحتكم لا تحدكم خطوط ولا تخططكم حدود؟

ألا تسمعني يا عصفوري الجميل؟

أم أن آذانك ليس لها سبيل إلى لسانك؟؟

إنك سعيد يا عصفوري بعجزك عن النطق.. فإن من أدوائنا الدوية أن أجاد عقلاؤنا البيان وأتقنوا فن الإصلاح!!

إننا كما نحن مصابون برجحان عقولهم.. مصابون كذلك ببيانهم الفصيح، وفصاحتهم البائنة.

إن بلاغتهم تغرينا بالحياة، وتخدعنا في حقائقها.. دربونا على الذب عن حياض لم ترسمها إلاَّ خطوطهم. وعلمونا الاستبسال في قضايا لم تخترعها إلاَّ أفكارهم.. فإذا رأيت أراضينا مصبوغة بالدماء، وآفاقنا محشوة بالبارود، وأجواءنا صاخبة بالحمم.. ورأيت مناجل الموت تحصد أرواحنا، وآلات الفتك تفني حياتنا ..فثق أنها منحة العقلاء ونعمتهم.

-28-

أعجب ما يعجبني في دنيا العقلاء، ويثير إكباري لهم.. أن مَلَكَاتهم من العقل السليم لا تخذلهم في أدق المواقف، وأشدها حرجاً.

ماتت إحدى قريباتي فارتج بيتها من هول الفادح، وضج بنواح الثكالى، وبكاء اليتامى.. وصك آذاني عويل يدمي القلوب، وتتفطر له الأفئدة القاسية.. فتبادر إلى ذهني أن فداحة المصاب ستترك أثرها في عقول هؤلاء المصابين، وأنني لا آمن أن يعجزوا عن السيطرة على ملكاتهم من العقل قياساً على ما عرفته في دنيا (المهابيل) من أمثالي.. ولكن فألي ما لبث أن خاب، وتجلّى أمامي من قوة مواهبهم ما أثار إكباري.

لحظتُ أن المحزونين في أشد لأوائهم استطاعوا أن يجتمعوا لكتابة سائر الأسماء من أقارب، وذوات، وجيران، ومعارف.. ثم ينتدبوا من يكلفونهم تبليغ خبر الوفاة، وموعد تجهيز الجنازة.

إنها ملكة العقل تستأهل الحسد.. فأصحابنا المحزونون الذين ظهروا في عويلهم يشبهون المأخوذين لم يعجزهم أن ينسوا أحزانهم في سبيل تقاليدهم وما تحتمه العادة والعرف.

ومضى بعضهم في التعقل إلى أبعد من هذا.. فشرعوا يجهزون في هدوء كل ما يلزم لاستقبال المدعوين لتشييع الجنازة، ويرتبون ما يصلح لإطعامهم والحفاوة بهم كما لو كانوا يستقبلون إحدى فرص الحياة الممتعة.

إنها موهبة تتميز بهذه القدرة على الخلط بين مشاعر، وأخرى.. لا يملك المهابيل من أمثالي مثلها.. فظروف المآتم في بيت مخبول مثلي لا تتسع لهذه العناية التي يستطيع العقلاء فيها أن يضغطوا أحزانهم، ويهيئوا أنفسهم لترتيبات لا نهاية لها، يحتفون فيها بصور خليقة بأن تتفق مع المناسبات البهيجة السارة.

لحى الله تقاليدنا في الحياة فقد أقحمت العقلاء في ألوان من التكاليف لا يبررها منطق.

-29-

لا أضيق بشيء ضيقي بالبيت من الشعر السخيف الذي تأبى أذواقنا إلاَّ أن نتداوله في مناسباتنا، كما نتداول الحكمة السائرة أو مأثور الشعوب من الفن الرفيع.

لا أدري أي جمال وهمه حفاظ الشعر في قول من قال:

المجد عوفيَ إذ عوفيت والكرم

وزال عنك إلى أعدائك الألم[1]

حتى أباحوا لأنفسهم أن يحفظوه لنا في الكثير الرائع الذي حفظوا، وأن يذيعوا غشاءه إلى جانب ما يذيعون من طريف الشعر الراقي.

المجد عوفي إذ عوفيت!! –ولعلّها عوفيت الرفعة والعزة، وعوفي السمو والفضل! وعوفيت المروءة والكرامة، كما عوفيت جميع الخلال العالية والصفات الحميدة!!

من أدرانا لعلّ كل هذه المحامد بلغها مرض مولانا فتداعت، وتهافتت، وتعرضت لعدوى المرض.. ولكنها –بعد ألف حمد الله– ما لبثت أن تماثلت للشفاء على أثر أن عوفي مولانا؟

وليت شعري أكل هذه المحامد معرضة للأمراض عند أول بادرة يمرض فيها أشباه مولانا من عظماء الحياة؟. أم أنها لا تتداعى إلاَّ لمرضه وحده، ولا تشفى إلاَّ بشفائه وحده.. دون سائر عباد الله من أمثالي وأمثالك؟.. وإذا فرحنا لشفاء

---

(1) – قلت (الجامع لمقالات السباعي) : وهو من شعر المتنبي ، مخاطباً سيف الدولة ، حينما اعتلّ سيف الدولة وعُوفِي ، فقال :

المجدُ عُوفي إذْ عُوفيتَ وَالكَرَمُ ... وَزَالَ عَنْكَ إلى أَعْدَائِكَ الأَلَمُ

وما أَخُصُّكَ في بُرْءٍ بِتَهْنِئَةٍ ... إذا سَلِمْـتَ فَكُلُّ النَّاسِ قَدْ سَلِمـوا

يقول لسيف الدولة : المجد عوفي بعافيتك، والكرم صح بصحتك، وزال ألمك إلى أعدائك الذين كان تأخر عنهم غزوك، وأغمد دونهم سيفك . كما في "شرح معاني شعر المتنبي لأبن الإفليلي – السفر الأول " (179/2) ، وانظر – غير مأمور - "يتيمة الدهر" للثعالبي (218/1).

المجد، أو شفاء جميع المحامد متأثرة به.. أفلا نفرح لزوال هذا المرض وانتقاله إلى أعدائه؟

إن شاعرنا يعلم أن لمولاه أعداء، ولا يرضيه أن تنتهي حكايته عند شفاء المجد والكرم لشفاء مولاه دون أن يتمنى انتقال هذا المرض إلى جماعة الأعداء.

أجل فبند الأعداء فصل كان له قيمة في حياة العظماء.. قد يكونون أعداء وهميين، ولكنه لا معدى من تخيلهم، لتستوي مكانة العظيم في مكانها اللائق بين المراكز السامية.

فإذا تملقنا العظيم أو هنأناه، أو رجونا له طول البقاء.. فلا معدى لنا من العودة إلى عدوه لنلعنه أو نجدف عليه أو نتمنى له شر الأمنيات.

وليس ضرورياً لشخص العدو أن يكون معلوماً لنا، أو معيناً أمامنا، أو معروفاً منا بسوء أو إثم.. ليس ضرورياً هذا، إنما الضروري أن ننسج هذا العدو أو نتخيله، وأن نصب عليه ألوان قذائفنا من لعنة وشتيمة.

وإذا استغنينا عن الخيال فلا يبعد أن يصادفنا عدو هذا المولى في شخصية مرموقة، ومكانة رفيعة نزجي إليها الثناء الذي كنا نزجيه إلى صاحبنا من قبل، ونتمنى لعدوه السوء والويل وما عدوه إلاَّ صاحبنا قبله.

تلك صفاقة شاعت أجيالاً بعد أجيال، نسجنا فيها لكل خليل عدواً، ولكل حبيب بغيضاً.. وعاشت بيوتنا تستجر هذه المعاني السخيفة، فالأم تزجر ابنها وهي تجدف (عمى في عين العدو) و (ضربة في قلب العدو) ويجاريها الأب، كما يجاريها القريب والصديق.. فينشأ الطفل في أوضاع يتخيل فيها الأعداء الموهومين

قائمين على كثب منه، متربصين به فيتهيأ للحذر، ويتعلم من خلاله ما يقصيه عن السماحة والسجاحة، وفضائل العفو.

لا غرابة أن يغمر شاعرنا هذا اللون من الأدب الصفيق، وأن نسمعه بعد أن يروي قصة المجد الذي شفي بشفاء مولاه، لا يهنأ بشفائه فحسب، بل يتمنى أن يزايله المرض إلى أعدائه الذين لم يسيئوا إلى الشاعر، ولم يناجزوه.

إنها مأساة الكذب في آدابنا وفنوننا.. فإذا استطعنا أن نستشهر الصدق في كل مآتينا فسيظلنا اليوم الذي نستطيع أن نستغني فيه عن صفاقة مثل هذا الشعر:

المجد عوفيَ إذ عوفيت والكرم

وزال عنك إلى أعدائك الألم

عند ذاك نلهم بأن المجد والكرم لا يتأثران كثيراً بما يصاب به ممدوحنا، وأننا إذا رجونا السلامة لممدوحنا فليس في هذا ما يستلزم تمنياتنا بأن يزايله المرض إلى شخوص لا نعرفهم، أو لا يجمعنا بهم جامع.

-30-

أعيان الحياة مجانين

هذه حقيقة لها قيمتها في تسلية نفسي، وإدخال الطمأنينة إليها.

يزهو فتى من أقاربي ببراعته في السيطرة على كثير من تصرفات رئيسه في العمل، ويرى أنه مدين في هذا لما وهب من لباقة ودهاء.. ولكني لا أرى رأيه. فرئيسه من أعيان الناس.. وأعيان الناس أوسع عقلاً من أن يشغلوا مَلَكَاتهم

بتدقيق الترّهات التي تهيئها لباقة المقربين، وأعجز من أن تشع أذهانهم لتحقيق نوازعهم، سيما إذا ملك الحب عليهم مصادر النقد وعطل فيهم مواهبه.

أعيان الحياة مجانين إلاَّ إذا استثنيت النقّادة الجبار الذي لا تذهله الرقة، ولا يملك الاستخذاء الزائف عليه عواطفه، فيسلس القياد، وينصاع في بشر ولين إلى أول لبق يقوده في الحياة.

إننا لو استثنينا أصحاب اللباقة من المقربين إلى أعيان الحياة على نسبة كفاءتهم في السيطرة على رؤسائهم، لانتهينا إلى نتائج يدهش لها العقل السليم، أمّا المجانين في رأي الناس من أمثالي فليس في الأمر ما يدهشهم، لأنهم يعلمون أن في مواهب العقول الكبيرة ما لا يميزها كثيراً عن مواهب العقول الصغيرة، وأن من أعيان الحياة مَن تلمس في تصرفاتهم ما يذكرك بتصرفات المجانين وفي أعمالهم ما لا يختلف كثيراً عن أعمال المجانين.

ألم يحدثنا التاريخ عن أصناف من الناس كانوا يحتلون من الحياة مراقيها الممتازة، ومع هذا فقد كانت لبعضهم نوادر لا تتفق مع مراكزهم في الحياة، وكانت مواهب بعضهم رهينة بمشيئة أصحاب اللباقة من المزيفين والمخادعين؟

ألم تصادفنا أحداث الحياة بأعيان تركوا مواهبهم من العقل ألعوبة في أيدي تابعيهم أو القائمين بأمرهم، وعاشوا لا يملكون من تصرفاتهم إلاَّ ما رضيه صغار أتباعهم؟

إن في هذا ما يسرني كمجنون، لأن نطاق أصحابي من المجانين قابل للاتساع العظيم الذي يضم هذه الألوف المؤلفة من أصحاب العقول الكبيرة إلى حظيرتنا معشر المجانين.. فحيهلا بالأخوة، وألف مرحباً بأسيادنا الزملاء.

-31-

ترى أكان من الممكن أن يدور في خلد الرشيد –عظيم ملوك العباسيين– أن الحياة سيظلها عهد يصبح فيه الفرد من أوساط الناس أو عامتهم أكثر أبهة وأظهر ترفاً من الرشيد في عرش سلطانه؟؟

إن الفرد من أوساط الناس بيننا أصبح يملك الجهاز الذي يصله في بيته بما يشاء من أقاليم الأرض، وإنه ينعم في وقدة القيظ بالهواء اللذيذ البارد، ويتمتع في زمهرير البرد بالدفء الحاني.. فهل ظفر الرشيد سيد الأرض في عهده بما نظفر اليوم؟؟

إن الراكب بيننا إلى أبعد مسافة كان لا يحلم الرشيد برؤيتها يسعد اليوم بغرفة.. وثيرة لينة، ولا يعجز عن تكييف الهواء فيها بما تشتهي متعته، وربما عنَّ له أن يشنف سمعه بألوان من الطرب كانت تعز على منال الرشيد، فلا يكلفه هذا إلاَّ أن يدير مفتاحاً أو يضغط زراً.

وما بولغ في تخيله في عهد الرشيد من مضحكات الأساطير أصبح اليوم حقيقة راهنة يملكها الإنسان العادي، فلا نتكلف اليوم في تخيل البسط التي يطير الجان بالسفار فوقها من طرف في الأرض إلى طرف آخر ناء عنه. لأن سابحات الجو من الطائرات أصبحن مطايا ذلولات.. تستوي على متنها الجويرة من أتراب ماسحات البلاط في عهد الرشيد.

هانت زينة الأرض في عصرنا، وهان ترفها، وذلل الصعب فيها.. حتى وسعت كل مفلس، وظفر منه بما عز على ملوك الأرض قبلنا أن يظفروا به فهل من جديد بعد هذا؟؟

إن عقلاء الحياة يروننا سعداء بما ظفرنا في جدد الأرض.. أمّا المجانين من أمثالي فمشفقون ممّا بسطت الحياة، خائفون ممّا ذللت من أكنافها لنا.

إننا بعد أن استخذينا لترف الحياة، وألفنا رفاهها.. بتنا مكتظين فيها بالباهظ المرهق الذي يحثنا على السباق، ويشحذ عزائمنا للإيغال في الكسب، والمبالغة في التملك.. لنجاري بما نكسب، ونملك قطار الحياة السريع، ونظفر فيه بما ظفر أشباهنا من معاصري جيلنا.

لمثل هذا ناح النائحون، وأعلنوا أن خطر طغيان المادة ربما هوى بنا إلى قرار لم يسبق إلى مثله التاريخ.

وليسوا في هذا مغالين، فليس للروح أن تينع في منابت الإغراء، وليس لزهورها أن تتفتح في غبار المادة المعقود.

أيدعو المجانين إذن إلى إطلاق الحياة من لبوسها الحاضر؟؟ واستئناف الكرة فيها على نفس المثل التي عاشها أسلافنا قبل آلاف السنين؟

هذا جنون مركّب لا يقوله عاقل أو مجنون عادي.

لا بد للحياة إذن أن تسير في مداجها، ولا بد لنا في سبيل التطور أن نتكلف بالمرهق الباهظ، ولا بد للحياة أن تسلس قيادها للمادة سواء كره المشفقون أو أشفق الكارهون.

-32-

لِمَ لا تكون للمجانين دولة كما كانت للعقلاء دول؟

إن تاريخ الأرض يقص علينا حياة الإمبراطوريات والدول التي حكمت الأرض من يوم أن عرفت الأرض، وليس بين هذه الإمبراطوريات والدول دولة واحدة أو إمبراطورية يصح أن تنسب إلى المجانين.

إن في هذا من الغبن ما لا يرضاه عادل.. فما يمنعنا أن نحاول ولو مرة، لنهيئ للمجانين دولة يتمتعون بصولتها وينعمون بنفوذهم فيها؟

لقائل أن يقول: إننا لا نأمن عواقب المجانين في دولة لا يحكمها غيرهم، وفي هذا من الأنانية والتسرع ما لا تبرره هذه الحجة.

إننا جربنا العقلاء في جميع أدوار التاريخ، وتتبعنا قصصهم في جميع الإمبراطوريات والدول التي أنشأوها على الأرض من يوم أن خلقت الأرض، فلم تر في جميع ما تتبعنا أثراً يطمئن بالنسبة للعواقب التي يشفقون منها.

إن الصفة العامة لتاريخ العقلاء في جميع آفاق الأرض –إلاَّ في الشاذ النادر– مشبعة بالدماء، مطبوعة بآلات الفتك والدمار، ممتازة بألوان من الخراب لا يحدها وصف، فلماذا لا نقنع بما قاسينا في عهودهم، ونجرّب ولو مرة واحدة أن نعطي فرصة الحياة للمجانين. فنمنحهم قيادنا، ونسلم إليهم زمامنا، ونبيحهم ليحكموا آفاق الأرض في دول محدودة أو إمبراطوريات مترامية؟

إن جماعة المجانين يهزلون أكثر ممّا يجدون، ولا أستبعد أن تكون مآسي الدمار التي شهدها التاريخ في أظهر عصوره مستمدة من عناية العقلاء بجد الحياة، ومزاولتهم أمورها بأساليبهم الصارمة، فإذا أحلنا الأمور إلى المجانين.. فإن آمال

مثلي تنعقد على هزئهم بالحياة، وسخريتهم منها، وهما خِلّتان لهما قيمتهما كلّما تعقدت المشكلات.

لسنا نطلب شططاً من الأمور ما دمنا نستلهم التجربة، ولا ننوي التسليم لدول مجنونة إلاَّ على إثارة بيّنة تثبت صلاحيتها بعد فساد العقلاء.

-33-

لست أعجب لشيء عجبي للمفكرين من أصحاب العقول السليمة.

إن مذاهبهم في الحياة لا تتفق في نظرية واحدة قط.. تعددت آراؤهم بتعدد شيعهم، واختلفت باختلاف مشاربهم ومثالبهم وألوان أفهامهم.

وليس في هذا ما يستحق الاعتراض في رأي المجانين من أمثالي.. ولكن مثار الدهشة أن تضيق أذهان الفريق من كل نوع أمام مخالفيه في الرأي، فلا يحاول فهمه، وتفنيد ما يعتقد في حرية واستقراء.. يتوخى فيهما التعرّف إلى النقطة التي أثارت الخلاف، ودراستها في دقة تكشف مكان الخطأ، وتضيء مسالك الصواب.

مثار الدهشة أن الفريق المخالف في أي حال لا يعنيه كثيراً أن يتلاقى مع مخالفيه في نقطة الابتداء بقدر ما يعنيه أن يعتز بشيعته، وأن يثبت لمبادئهم مهما كلّفه الثبات دون أن يمنعه تفكيره الراجح أو يثوب به عقله الراشد.

كنت أقول مرة لأحد المتعصبين في بعض مذاهب الفكر: إن نظرتك إلى الأشياء لا تتسع لجميع الزوايا مهما حاولتها لتكون شاملة، وإن حكمك في

ضوء هذا لا يتعدى أن تقارب الصحة، لأن الصحة كاملة، لا يستوعب حقائقها عقل من البشر. فما زاد عن أن زوى ما بين عينيه!! وحدجني في اشمئزاز!! ثم أولاني ظهره!!

هذه الكبرياء على مناقشة الحقائق سعياً وراء الحلول الصحيحة ستظل مأساة البشر ما عاشت الحياة، وسيبقى مبعث الخلاف، ومدعاة الفتن التي عانت الأرض وتعاني من بلوائها ما لا ينتهي عند حد.

أمّا نحن –معشر المجانين– فستظل شقة الخلاف قائمة على سعتها بيننا وبين إخواننا العقلاء ما ظلوا على تعصبهم لما ألفوه من آراء أشاعوها عنا، وسيعجزنا أن نتلاقى بهم ما داموا نائين، يكبرون على النقاش، ويأبون الفلسفة إلاَّ في ضوء ما ورثوا من مذاهب.

-34-

ما أكثر الذين يلعنون المال، ويجدفون على أصحابه، ويضيفون إليهم أكبر الرزايا، ويتهمونهم بكثير من السيئات.. ولا أعرف المال رذيلة أو سيئة إلاَّ أن تكون سوء التدبير.

وسوء التدبير ليس وقفاً على الثراء والغنى.. بل هو مشكلة الحياة في غناها، أو فقرها وقلة أدواتها بين مختلف الطبقات.

أيُقال تعليقاً على هذا: ليس لمجنون رأي؟؟ أم نصيخ السمع إلى كل قائل، ونلتقط الحكمة أنّى وجدناها؟

إن للمال من المزايا ما يهيئ المتموّلين للشرف.. فأنت ربما أمنت جارك البعيد الغني على مائة ريال تحفظها في بيته أكثر ممّا تأمن جارك القريب الفقير على جزء منها، لا لأن طبقات الفقراء متهمة في أمانتها، وما يمتاز من خصالها.. ولكنهم محتاجون في الأعم الغالب! وليس كالحاجة شيء يغري بنسيان المبادىء! ويدفع إلى اقتحام الصعاب.

وأنت تستطيع أن تستفيد مادياً لمشاريع بلادك ومنافعها من طبقات المتموّلين أكثر ممّا تستفيد من طبقات الفقراء.. ذلك لأن قيمة الريال عند الأولين مهما ضنوا! لا تبلغ قيمته عند الآخرين مهما تغالوا في السخاء!!

وأنت تستطيع أن تبني آمالك في نهضة البلاد وتصنيعها وتأسيس البيوت العاملة فيها على ثراء الموسرين مهما كانوا ممسكين، ولا تستطيع أن تبني لبنة واحدة في بيئة معدمة، أو محيط فقير.

ما أروع الثراء يمشي شامخ الرأس في حدائق بلادك، وما أهون الفقر يتسكع ذليلاً بين حاراتها الضيقة وأزقتها القذرة.

إذا كان للثراء مساوئه المحدودة بأشخاص ينسون واجبهم لبلادهم، أو يجهلون بعض حقوق مواطنيهم عليهم.. فإن مساوىء الفقر تغذي الوليد مع لبان أمه شر ما يتغذى به طفل، وتهيئه من نعومة أظفاره لأشنع ما يهيىء الحرمان من حقد وكراهية وانحلال.

حاول الغنى ما وجدت إلى الغنى سبيله المستقيم! وإذا أخطأت الاستعانة مرة دون أن تجعل الخطأ ديدناً.. فثق أن في الغنى مدىً واسعاً لتكفير الأخطاء وإصلاح سيئاتها.

حاول الغنى! وثق أن القناعة لا ترادف الفقر المطلق الذي يسيء إلى قيمتك الاجتماعية.. إنما هي كنز يغني عن جشع المتهالكين في غير شرف، ويبرر لك التكسب الذي يحفظ مركزك لائقاً بين العاملين في حقول الحياة.

حاول الغنى! لتكون عزيزاً بما نالت يداك، قوياً بما توافر لديك من ذخيرة الحياة، سعيداً بما تهيأ لك من استعداد تستطيع أن تخوض به غمار المحسنين، وتسابقهم فيه إلى الأهداف السامية والأماني البعيدة.

حاول الغنى! وحذارِ أن تقنع بالفقر فتسيء إلى أنبل عاطفة يهمس بها وجدانك، وتعرض نفسك لضعة الحرمان ومشكلاته الخطرة.

اخطُ اليوم خطواتك الأولى نحو الجد المثمر، وحاول أن تقتل الفقر، فقد قال غيرك من قبلك: لو كان الفقر رجلاً لقتلته.

اخطُ اليوم خطواتك الأولى في نشاط لا تعرقله العقبات، ولا تثبط همته المشكلات، وإذا استطعت أن تعلنها على الفقر حرباً عواناً في كل بيت بجوارك، أو أسرة تمت إليك، أو بيئة تتصل بك.. فسيكون لك فضل القائد وشهامة أصحاب المروءة..

اخطُ اليوم خطواتك الأولى.. ولا تنسَ إذا تربعت غداً في دست ثرائك أن تذكر جميلي كمجنون يصف الدواء وهو عليل!!

-35-

التقيت في طريقي إلى العراق بمجنون نمسوي ينفق أمواله فيما يرهق حياته، ويحيلها إلى شقاء ناصب، ونصب أليم!!

التقيت به في قرية من نواحي حدود الأردن.. يستقيم بين يديها الطريق المعبد للسيارات إلى العراق.. ورأيت بعض البدو يحيطون به. وقد أناخ بحمله في ظل ربوة في القرية. فلم أستغرب كثيراً هذا النصب الذي يعانيه هذا الصنف من الأوروبيين في مثل هذه البوادي الشاسعة.

ولكن رفيقي أبى أن يستعذب الفكرة، وهاله أن يتكلّف مثل هذا الأوروبي الناعم مشقة السفر على ظهر دابة ترود به هذه الأصقاع الشاسعة، وتعرضه للقيظ القاتل، والدروب الوعرة، بين مسالك مجهولة، لا يتبيّنها إلاَّ خبير عاش في أحضانها، وتمرّن على قسوتها.

قال: أي لون هذا من ألوان الجنون يغري مثل هذا المتمدن ليحمل نفسه على مثل هذا المركب الخشن في مثل هذه الأصقاع القاسية؟ وأي لون من ألوان الجنون يزهده في هذه الغرف المريحة التي تقطع المسافات إلى غاياتها في طريق معبد حتى يتغافل عنها ويعدو إلى دابة وئيدة الخطى يضل بها في مفاوز لا تطرقها قدم، ويقتحم بها مسالك لا يأمن معها الضياع؟

قلت: وفي الأمر أبعد من هذا الجنون!! فإن صاحبك المتمدن ينفق في مسافاته البعيدة على مثل هذا المركب الخشن أضعاف ما تنفقه وأنت هانئ بمركبتك الناعمة في طريقها المعبّد.

قال: إذن فهو الجنون المطبق!! الذي كنت أسمع أساتذتنا يتحدثون عنه دون أن أفهمه.

فهم صديقي إذن معاني الجنون المطبق في تصرفات صاحبنا النمسوي الذي يشق على نفسه ويكبدها النصب في مسالك وعرة ما أغناه عنها لو عقل الحياة، وفهمها بالأسلوب الذي يفهمها به أمثالنا من عباد الله الغافلين!!

وعلمت فيما بعد أن صاحبنا النمسوي ترك بلاده من خمس سنوات، لأن مجاهل الشرق كانت تناديه، ليزور مغاورها، ويدرس طبائع أرضها، ويخالط الممالك القائمة على تخومها، وأنه عرض نفسه في بلاده على بعض الجمعيات التي تُعنى بمثل أمره لتساعده على نفقات هذه الرحلة بما يهيئ له الكفاف الخشن فلم تثق به أول الأمر حتى لجأ إلى صاحب دار للنشر يرجوه أن يقرضه ما يكفي أوده. فقبل منه على أن يتنازل عن حقوقه في نشر ما يدرسه لسنة كاملة.. وبذلك نقده الناشر ما ساعده على أمور المواصلات، وقنع الرحالة بما تسلم من نفقات ضئيلة يضرب بها في آفاق الشرق، وينفق منها ما يسد الرمق.

وقد طال إمعانه في آفاق الشرق.. فزار الأفغانستان والهند وكثيراً من بلاد الصين، ثم عرج إلى الشرق العربي فزار أصقاعه النائية ودخل صحاريه من جميع المنافذ.. محمولاً على محمل خشن، مصحوباً بزاد لا يكاد يسد الرمق.

وقد بر بوعده للناشر، ولكن ما كاد ينتهي من عامه الأول حتى انهالت عليه عروض سخية من أصحاب دور النشر، وكتبت إليه جمعيات كبيرة تكلفه أن يوافيها بما يكتشفه ممّا له علاقة باختصاصها.. فدرّت عليه أخلاف الرزق، وعرف الثراء طريقه إليه، فبات رصيده في البنوك محترماً، وحل محل الفقر غنى له قيمته بين أرباب المال.

إلاَّ أن أسلوب حياته لم يغير بتغيّر أحواله من الفقر إلى الغنى، وظل على أمره صديق القفار المجهولة، ينفق الكثير في سبيل ارتيادها ولا يبخل على مرشديه فيها بما يفتح أمامه المسالك المغلقة.

هذا لون من ألوان الجنون الراقية، استهوله صديقي واستنكر تجشم صاحبه للمتاعب المرهقة التي تغنيه عنها.

استنكر صاحبي هذا العناء وسمّاه جنوناً مطبقاً.. فمن لصديقي من يفنّد له غاية هذا العناء وأسرار نجاحهم فيه؟؟

إن أذهاننا تقصر في كثير من الأحيان عن فهم أسرار الحياة الراقية، فلا غرابة أن نهرف بما لا نعرف، وأن نقذف بالجنون كل فكرة لا تتسع لها إفهامنا.

سرّني كثيراً أن يضاف النمسوي إلى قائمة المجانين من أمثالي، وتمنيت ألاَّ يبعد جنوني عن مثل هذا اللون من أصناف المجانين، وأن يشتد إساري حتى أقوى على مجاراتهم فيما يهيمون!!

-36-

يشكو (ن) من نقطتين في حياته كانتا فاصلتين بين غايته التي عاش حياته يحلم بها، وبين واقعه الذي سِيق إليه كما تُساق السائمة إلى غير هدف.

ومن غريب أمره أن يشكو إلى مجنون لا تُطاع كلمته ولا يُستأنس برأيه.

يقول إن النقطة الأولى فصلت في حياته يوم أجمعوا على توجيهه في الكلية إلى دراسة فن لا يستهويه، ضاربين عرض الحائط بميوله الخاصة وإعداده الفطري!

وقد عجز عن إقناعهم فمضى فيما سيق إليه واستطاع أن يقسر ميوله، ليعد نفسه كما أرادوا.. حتى إذا نجح فيما تكلّف، واستطاع أن يظفر بالورقة التي أطلقوا عليها (شهادة)، وأعد نفسه للعمل في نطاقها.. عادوا يميلون بتوجيهه إلى سبيل جديد تمثله وظيفة لا علاقة لها بما كان يهوى قبل دخول الكلية، ولا صلة بينها وبين ما فرضوا تعليمه عليه في الكلية، فكانت النقطة الثانية التي فصلت في حياته وهيأته للفشل.

ما أبلغ خسارتنا بإغفال ماهية المواهب في نهضتنا الجديدة، وما أضيع شبابنا إذا كنا لا نستجيب لما كوّناه من ميولهم وأعددناه في حياتهم!!

يقول (ن) إنه لا يزال يهوى فنه قبل دخول الكلية، كما أنه يمانع كثيراً في العمل داخل النطاق الذي تكلف دراسته.. ولكن الظروف التي أبت إلاَّ أن تحوله إلى وجه ثالث لا يصح لها أن تطالبه بالإنتاج المثمر في غير فنه الذي هوى، أو حقله الذي تكلف فيه للدراسة.

وليس لمجنون مثلي أن يعترض على ما يفرضه العقلاء، ولكنني أنصح أن يقنع بحجته غيري من أصحاب العقول السليمة، لأن دفاعي عنه كمجنون من شأنه أن يريبهم فيه، وربما أضافوه إلى النوع الذي وضعوني فيه وأدرجوه معي في سلك الم

-37-

ما استثقلت في حياتي شيئاً كما استثقلت الاختبارات.

في الاختبارات تكلّف لا يجاري الطبائع المرسلة على سجاياها، وفيه ارتباك لنفوس لم تتعود الإلزام والتكيف حسب الخطط المرسومة لها، والقواعد المقررة عليها.

ولقد جرّبتُ عجزي في أي سؤال يفاجئني به ممتحن، أو أي بحث يكلفني بتوضيحه سائل.. ورأيت كيف تلتاث على مذاهب القول، وتتجمد المعاني أمامي.. فلا يواتيني تصريفها حتى إذا انفردت بنفسي، وانطلقت على سجيتي.. انطلقت المعاني من قيودها، وانثالت مذاهب البحث أمامي في يسر بالغ.

وقد تطرأ الفكرة التي عجزت عن إجابة سائلها قبل أيام.. تطرأ في سياق نقاش كان من مواليد الصدف البحتة.. فإذا المعاني تتداعى، وإذا أركان الفكرة تسلس للبحث في غير تكلف.

أيُقال إن أذهان المجانين لا تتركز في محور للبحث، وإن خيالهم لا يتسع لمجالي فكرة بعينها إلاَّ في مصادفات لا تنظمها قواعد ولا تحكمها قوانين؟؟

قد يُقال هذا لمجنون مثلي شاعت الفوضى في تلافيف رأسه، ولكن أيقال مثله لعقلاء جرّبوا غرف الاختبار، وقاسوا من مرارة الفشل بين جدرها في صور لا تتفق مع جدارتهم وكفاءتهم؟

ليس في الأمر إلاَّ أن بعض النفوس لا تتكيف بالخطط التي ترسم لها، والقواعد التي يلزمهم بها سائل أو ممتحن، لأن أفكارهم تلتاث بالتقرير والتخطيط، ولا

تواتيهم المعاني سلسلة سهلة إلاَّ إذا انطلقوا مع سجاياهم دون أن يتكلفوا لطلب أو يلزموا بغرض.

هذه نظرية عامة نلمسها في كثير من غرف الاختبار، ونجد نتائجها واضحة في جزء كبير ممّن هيأتهم ظروفهم لمعاناة الفاحصين والمميزين.

كلنا يعلم أن غرف الاختبار في المجامع والمدارس والهيئات تستقبل الكثير ممّن يربكهم الالتزام ويفقدهم توازنهم الذهني، وينسيهم حتى أبسط معلوماتهم فلا يظفرون بنجاح.. بل ويحرمون النسبة التي يستأهلونها والدرجة التي يستحقونها، وربما تقدمهم غيرهم ممّن لا يبلغون شأوهم ولا يطمعون في مساواتهم.

ليس من يشك في أن الامتحانات شر لا بد منه في الحياة، وقد استحقه أهل الحياة بتجافيهم للمثل العليا في الإنصاف، وإلاَّ لاستطاعوا الاستغناء عنه بسبر أغوار الملزمين بالاختبار بأساليب جديدة قوامها التحرّي العادل، والتجربة المنظمة.. ولكننا لا نضمن صدق التحري، ولا نثق في إخلاص المكلفين بتجربة الممتحن فلا مناص من الخضوع لأنظمة غرف الاختبار.

إذا كانت نعمة العقل فضيلة لا يُقاس عليها. فإن فضيلة العدل نعمة لا يمارى فيها.. ولو فقد الناس مَلَكَة العقل، وانطلقوا يقاسمون المجانين حياتهم في الأرض لكان خيراً في رأيي من أن يفقدوا خِلة العدل ويعيشوا في ظل من الثقة المفقودة، والأمان المضطرب.

-38-

أكان يعلم ربان أول باخرة تجارية ألقى (بروسيها) في جدة في مطلع هذا القرن الهجري، أنه يمهد (للتنبلة) في هذا البلد، ويساعد على إخلائها للعيش الخامل؟

كانت الطاقة العاملة في مراكب البحر الشراعية ضيّقة الحيّز، وكانت جهودها في نقل البضائع التجارية محدودة المدى، فكانت البلاد تتكل في حل حاجاتها ولزومياتها على ما تنتجه سواعد صنّاعها وأرباب الحرف فيها.

كانت بيوت الحرف في آفاقها تنتج أكثر من مائتي صنف من أنواع السلع التي نستعملها في بيوتنا وأسواقنا، ونعرضها للمشترين من الحجاج يحملونها إلى بلادهم كأثر من بلادنا.

كنا ننتج أكثر من مائتي صنف من أصناف الصناعة تأتي في أولها العطور والمسابح، ويأتي في نهايتها (المداس) الذي كنا ننتعله قشيباً. نتبارى في زخرفته وأنواع تصميمه، حتى إذا تهادت أول باخرة على رصيفنا في جدة استطاعت أن تكون فاصلاً بيننا وبين نشاطنا، وأن تحيل حركتنا إلى دعة خاملة، وأن تعلمنا الاتكال على ما ينتجه غيرنا.

وعندما دب الخمول بيننا دب بطيئاً، ثم تنقل بين أعضائنا دبيب المرض المعدي في الجسم الصحيح.. فإذا أسواقنا تتقلّص ويختفي من معروضاتها ما كانت تنتجه أيادينا لتحل محله بالتدريج ما تحمله إلينا البواخر من منتوجات الأجانب وصناعتهم.

واستمرأنا على مر السنوات خمولنا، فشلّت أيدينا عن العمل، وتعطلت حركاتها، وأصبحنا لا نملك في أسواقنا ما تزهو به كعمل تنتجه أيادينا، وعم الأمر

حتى باتت معروضاتنا للحجاج تصنعها إيطاليا أو بلاد أوروبا الشرقية والشمالية، وترسلها إلينا لندفعها إلى الحجاج كأثر مزيف منا، ثم نجمع أرباحها ونعيدها إلى أوروبا.

ولم يقتصر الأمر على هذا حتى تعدّاه إلى إنتاجنا الحيواني والزراعي، فقد شرعنا نستغني بالزبد واللبن وأنواع الدهن وباللحم في بعض الأحيان عمَّا ننتجه بأيدينا وبذلك بتنا عالة على ما تنقله إلينا البواخر.

إذا عنَّ لي اليوم أن أدعو الله ليصيب البواخر بكارثة تمنعها أن تصل إلينا.. فسيُقال إنها دعوة مجنون لا يعي ما يقول، ولا يميّز ما يتمنى، ولكن ليس بيني وبين العقلاء إلاَّ أن يدققوا حقيقة الفكرة ويناقشوا نواحيها المختلفة.

إن الحاجة أم الاختراع، فإذا أصيب البحر بما يفقده النشاط، وتعذّر وصول البواخر إلينا فإننا سنندفع تحت إلحاح الحاجة لتحريك أيدينا حتى تنشط للأعمال، وتمرين عقولنا حتى تألف التمحيص والتنقيب، وإنشاء الأفكار من مظان العدم.

سنستطيع أن نستغني يومذاك عن جميع الكماليات التي أودت بنا إلى مهاوي الترف، ووزّعت أموالنا على البيوت العاملة في أوروبا ونكتفي بالآنية التي يصبها صانعنا، والثوب الذي ينسجه حائكنا، وعود القصب الذي يبريه عاملنا لنكتب به فيما اتفق وكيفما اتفق.

إنها آراء سبق إليها غاندي وعاش حياته يدعو إليها، ولكنه ما كاد يفارق الحياة حتى نسي أكثر العقلاء من أنصاره حقائق الفكرة وذبل حماسهم لها.

وأكبر ظني أنه لو تهيأ لغاندي بعض المجانين من أمثالي لورثوا حماسه للفكرة، وثبتوا بعد موته لما دعا، واستطاعوا أن يستغنوا على مر الأيام بذواتهم عن كل ما تحمله إليهم أوروبا لتستنزف به أموالهم وتعطل بسببه مَلَكَاتهم، وتقضي على روح العمل بينهم.

لم يوفق لغاندي إلاَّ مشايعوه من العقلاء. ولو أسعفه الحظ بنفر من المجانين لكان لمبادئه اليوم شأو غير هذا الشأو الذي قضت عليه الأيام، وعفت على آثاره في الحياة.

-39-

ما أروع أن ينتصر المجانين بانتصار الحياة في جيلها الحاضر وقد أثبتت الأيام صدق أفكارهم وصحة خيالاتهم التي كانت تثير ضحك العقلاء وسخرياتهم.

كان المجانين إلى عصر سابق يتحدثون عن قصة الشبان الثلاثة الذين تسابقوا في طلب يد ابنة (الأمير)، فأمرهم الأمير بالسياحة في الأرض.. ليتحفوا ابنته بعد عودتهم بأطرف ما يصادفهم في سياحتهم.. ووعد بأن يقدم ابنته إلى مَن يستطيع أن يتحفها بأغرب تحفة في الأرض.

ثم تمضي القصة المجنونة خلف السائحين الثلاثة، إلى أن تعود بعودتهم.. فإذا ثلاثتهم يجتمعون في طريق العودة في مركب واحد.

أمّا الأول فقد ظفر بمرآة إذا نظرها استطاع أن يرى فيها صورة مَن يحب على هيئته في تلك اللحظة، وقد عنَّ له وهو في المركب أن ينظر صورة بنت الأمير

فرآها تعاني مرضاً خطيراً، فاستبد به الحزن وأسرَّ ذلك إلى زميليه فتقدما إليه يعرضان ما عندهما.

قال أحدهما: إنني أملك قنينة تحوي ماء الحياة، إذا ازدرد المريض منها قطرة عاد إلى الحياة صحيحاً معافى، فقال الزميل الثالث: إنني أملك حمامة من الزاجل مدربة على نقل البريد إلى أي جهة نائية، فإذا وافقتما على ربط قنينة ماء الحياة برجلها فستحملها إلى بيت المريض في سرعة خاطفة.

ثم تمضي قصة المجانين حتى تصل بالقنينة إلى المريضة التي لا تكاد تزدرد القطرة منها حتى تشفى.

وتأبى القصة (قصة المجانين) إلاَّ أن تعلن الحيرة في بيت الأمير! فقد تعذر على الأمير أن يعرف أي التحف أشدهن غرابة وأثبتهن منفعة وأطرفهن منظراً.

أعلن الأمير حيرته فيمن يستحق يد ابنته.. أهو صاحب المرآة التي استطاع بها أن يكتشف مرض الفتاة من مسافة تبعد آلاف الأميال عنها؟ أم صاحب القنينة التي أعادت إليها الحياة؟ أم صاحب الحمامة التي عاد الفضل إليها في نقل القنينة؟

أعلن الأمير حيرته فيما تقول قصة المجانين.. ونحن لا تعنينا حيرة السلطان في القصة كما يعنينا الخيال الخصب الذي كان يتمتع به مؤلف القصة المجنون، فقد أبدع في تصوير المرآة التي تكشف المطلوب من وراء الأقاليم النائية، والحمامة التي تستطيع أن تؤدي خدماتها في نظام خاطف، والقطرة من الماء التي تستعجل الشفاء في أخطر الأحوال.. يعنينا من القصة أن يؤلفها مجنون متطرف الخيال في نظر جيله، فلا تلبث الأيام أن تثبت صدق أفكاره وصحة خياله المتطرف.

لا تلبث الأيام أن تثبت أن في الإمكان رؤية الشخص من وراء الأميال البعيدة بواسطة التلفزيون، وأنه لا يعجزنا أن نسعف المريض في بقعة نائية بجهاز نسميه طائرة تؤدي خدماتنا في سرعة خاطفة، وأننا إلى جانب هذا في سبيل اختراع عقاقير تفعل مفعول السحر في استعجال الشفاء.. بدأنا ذلك بالبنسلين وسنختمه بأحدث ما ينتهي إليه علم الذرة.

إنها خيالات مجنون انتصرت بانتصار الحياة في جيلها الحاضر واستطاعت أن تثبت صدق أفكاره وأن تحيل السخرية والهزء المضحك إلى حقيقة جادة يؤيدها العلم.

ما أروع أن ينتصر المجانين في أمثال هذه الأحداث، وأن تتكشف خيالاتهم المضحكة وتصوراتهم المتطرفة عن حقائق تبهر العقلاء فتملي عليهم احترام المجانين، والكف عن السخرية بهم.

-40-

أليس غريباً أن ترى ناشئة أدبائنا وصغارهم أكثر نشاطاً من أدبائنا الكبار وأبلغ حساسية وأغزر إنتاجاً؟

إن من كبار أدبائنا من لا تسخو قريحته بكتابة البحث الواحد إلاَّ بعد لأي ومشقة، وإن منهم مَن يحول عليه الحول بعد الحول دون أن يشعر بحاجته إلى كلمة يسطرها للأدب أو فكرة يصدع بها للفن.

أيُقال إن حساسية الصغار أشد وقدة، وأكثر توهجاً من الكبار؟. أم يُقال إن الكبار باتوا مستغنين بمراكزهم في الحياة عن نشوة الفن، ولذاذة الأدب الممتعة؟

لقد كان الكبار صغاراً، وكانوا مرهفي الإحساس، وكانوا يتوقدون نشاطاً.. وكان إنتاجهم يفيض غزارة وحيوية، وكانت قرائحهم سخية تزخر بالفصول المطولة والأفكار الحية.

فأي طارىء بلّد أحاسيسهم، وقضى على فورة النشاط في دمائهم، وأنساهم الأفكار التي كانت تزخر بالحياة في غزارة وفيض؟

إن المجانين من أمثالي لا يفهمون معنى لتبلد الحساسية المتوقدة إلاَّ في حالات شاذة تعتريها أمراض نفسية، أو تصيبهم فيها لفحة من شياطين الجن.. تخمد جذوتهم، وتحيلهم إلى شخوص جامدة لا تنبض فيها نأمة ولا تتحرك فيها حياة.

فهل أصيب الكبار بأمراض نفسية قضت على حيويتهم، أم مسّهم طائف من الشياطين فأحالهم إلى كتل باردة، وأطفأ فيهم شعلة الفن التي كانت تتوقد إنتاجاً وغزارة، أم شغلتهم شواغل الحياة، وجرفهم تيارها العاصف؟

أكبر ظني أن الفنان الأصيل يعيش ما عاش مستعصياً على نوازع الحياة، كبيراً على مشاغلها، عظيماً بما يحس في حناياه من وهج الفن.. لا تلويه أحداث الحياة، ولا تعصف به طوارئها ولا يجد في آمادها ما يلهيه عن نوازعه الجياشة وخياله الفياض.

إنك لا تطمع أن تغري المجنون بأي لون في الحياة لا يصادف من نفسه هوى، وكذلك كان شأن العباقرة والفنانين وأصحاب الفلسفة العالية لا تملك إغراءهم ما ظلوا أصيلين!!

ما أبعد الفرق بيننا ونحن نعمل بأيدينا وبين غيرنا وهم يعملون بعقولهم. إن الصانع الذي يزاول عمل القطعة بيده كما ورثها من أبيه عن جده غير الصانع

الذي يزاولها بعقله فيترك مواهبه تشارك في العمل وتستحدث في تفاصيلها جديداً لم يعرفه أبوه.

عشنا مئات السنين نصنع (الشقادف) كما ورثناها عن آبائنا.. لم نستحدث فيها عارضة جديدة، ولم ندخل على تفاصيلها تعديلاً جديداً.

وليس في هذا ما يدل على روح الابتكار التي يجب أن يتميز بها الصانع الحاذق وليس فيه ما يدل على أننا نعمل بعقولنا ولا نترك أيادينا تستبد بالعمل في شكل آلي محدود بما تعلمناه من طريق الإرث.

-41-

حدثتني جدتي أنها كانت تواظب على حضور إحدى حلقات العلم في المسجد الحرام.. لا لأنها تستفيد شيئاً ممّا يُقال! بل لأنها تعلم ثواب المستمعين في حلقات العلماء.. وكانت تجاورها في الحلقة سيدة عُرفت بالجنون، ولكنها كانت تقضي أوقات الدرس هادئة لا تنبس ببنت شفة، وليس في ملامحها ما يدل على فهمها لما يُقال!! وكان المدرس يتابع يومياً قراءته في قواعد اللغة العربية، ويشرح أصولها فأنّى لجدتي أو جارتها أن تفهما حرفاً ممّا يُقال؟؟

وخرجت المجنونة في أحد الأيام عن صمتها ورفعت صوتها مهللة في فرح واضح.. فأحدثت ضجة في صفوف الطلبة، فلما التفتوا ليسألوها عن شأنها أبانت أنها جد مسرورة فقد كانت تسمع كل يوم (ضرب زيد عمراً) أمّا اليوم فقد سمعت جديداً (ضرب عمرو زيداً) فما بالها لا تفرح لنصرة عمرو المظلوم وقد كانت لا تسمع اسمه إلاّ مضروباً؟!

إنها واقعة لها قيمتها في رأيي، وإن صدورها من مجنون تدل دلالة واضحة على استعداد المجانين في كثير من الأحيان لنقد العقلاء في صميم الحياة.

إن الشيخ العلامة العاقل أستاذ مجنونتنا لم يرث قواعد النحو إلاَّ في صيغ لها أمثالها المحفوظة جيلاً بعد جيل، وهو يلقنها كلامه كما حفظها (ضرب زيد عمراً) دون أن يجرؤ على التحوير، أو التنويع، أو إدخال جديد يشوق الطالب أو يسليه.

هذه ظاهرتنا التي يعاني العقلاء مأساتها لا في أمثالنا التي نضربها لقواعد النحو، أو الصرف، أو البلاغة ولا في أساليب تعليمنا التي ورثنا صيغها.. بل في سائر مآتينا دون استثناء.

إننا لا نزاول أفكارنا وما تنتج أعمالنا بروح المبتكر الذي يستخرج من الألوان القديمة لوناً جديداً لا يعرفه عالم الألوان، ولا نضيف إلى ما ورثنا من مادة أو فن شيئاً جديداً يدل على مشاركة عقولنا فيما تنتج.

ولا تنهض أمة درجت على تقليد ما ترث دون أن تدخل عليه ما يطبعه بها، ويدلل على مبلغ عنايتها بالتجديد والابتكار..

لسنا نقصد بالتجديد أن نقطع صلتنا بما ورثنا سيما إذا كان الموروث له قداسته الخاصة، ولكننا نريد أن نتصرف فيما يقبل الصرف، وألاَّ نجمد على ما يقبل التجديد، وأن نستعمل عقولنا في كل ما ترث من أفكار وأعمال.

كنت مرة في سيارة عامة ببعض مدن الشرق العربي، وكنا مزدحمين بصورة لا تترك متنفساً لأحدنا.. ولكن السيارة كان لا بد لها أن تقف في محطاتها الخاصة، ولا بد لها أن تستقبل مزيداً من الركاب سواء غادرها بعض المزدحمين فيها أم لم يغادروها.

وأهلّت علينا في إحدى المحطات سيدة من الشباب العصري (المودرن)، واستطاعت أن تجد بين المزدحمين فرجة لا تكاد تتسع لوقوفها.. فحشرت جسمها في الفرجة، وأخذت تتأرجح بين الواقفين بتأرجح السيارة بين الخفض والرفع.

وأطالت النظر في أقرب الجالسين بجوارها، ثم شرعت تترحم على أيام زمان.. عندما كان شمم الرجل يأبى عليه إلاَّ أن يؤثر السيدة في مثل هذا الزحام، وأن يفضلها على نفسه فلا يقبل الجلوس دونها، ولا يرضيه أن يتركها تتأرجح في مثل هذه الأوضاع. وسرى تقريعها بين الركاب مسرى الكهرباء فاستجاب لها أكثر من واحد، ونشطوا واقفين يعرضون عليها الجلوس في أماكنهم.

لقد كانوا عقلاء، استجابوا لداعي الشمم في دمائهم، ولو كانوا مجانين لاستعصوا على نداء الدم، والتمسوا رأي الفلسفة فيما تقول السيدة (المودرن!!).

إن المجانين من أمثالي يعلمون أن للمرأة عندهم حقوقاً تأتي في طليعتها حماية ذمارها، والذب دونها بالمال والنفس، وتأتي في نهايتها إيثارها بالمركب السهل والعيش اللين؛ صوناً لأنوثتها وإبقاء على نعومتها.

ولكن أي امرأة؟ إنها امرأة الأجيال التي كانت تعيش فيها فخورة بحماية الرجل، مزهوة برقتها وحاجتها إلى خشونة الرجل. أمّا اليوم وقد تحولت إلى (مودرن) تنادي بالمساواة فمن العدل أن تتساوى معه في مزاحمة الأقدام، وألاَّ تعترض على ما يصادفها بجواره من ظروف قاسية، وأن تتقبلها بنفس الروح التي يتقبلها بها الرجل.

قد يتبادر إلى ذهن عاقل أن المجانين في مثل هذا الموقف يحاربون نهضة المرأة، وينكرون عليها رقيها، ولا يرضيهم أن تساوي الرجل في نصيبها من الحياة السليمة.

والواقع لا يؤيد هذا، فرقيّ المرأة دليل على نهضة الأمة التي تحيا فيها، وقد بلغت حاجتنا إلى رقيها في نهضة الشرق العربي الجديدة ما لم تبلغه في أي زمن مضى، لأننا بتنا في أمسِّ الحاجة إلى جيل تنشئه الأم الراقية في خير ما تنشأ عليه الأجيال الناهضة ببلادها.

وإن ما عانيناه من جهل الأم وعجزها في مجالي الحياة طوال قرون لكفيل باعترافنا لها بالمركز الذي أصبحت تحتله في حياتنا الجديدة.

إننا نؤمن بهذا، ولكننا نتمنى ألاَّ تنسى المرأة أن سبيلها إلى الرقي لا يعني المساواة الشاملة التي تلغي الفوارق بين أنوثتها الناعمة ورجولتنا الخشنة.

إنها بعد أن تثقفت في أكثر بلاد الشرق أبت إلاَّ أن تحتفظ بجمالها وفتنتها ورقة ملمسها.. وهي صفات تباعد بينها وبين خِلال الرجل، فأية مساواة يمكن أن نتلمسها من هذه المفارقات؟

حيهلا بها مدرِّسة، أو ممرضة، أو طبيبة، أو عاملة في كل ما يتفق وطبيعة وظائفها في الحياة، أمّا أن تساوي الرجل في جميع أعماله الخشنة؛ فذلك مردود إلاَّ إذ شاءت أن تطلّق أنوثتها، وأن تنسى حفاوتها بالرقة والفتنة.

تلكم آراء مجنون فإذا بدا للعقلاء غيرها فالعقول طبقات كما أن الجنون فنون.

-43-

عشتُ أحبُّ المجانين، وأتودد إليهم، وتعجبني مناقشتهم، ويعنيني جداً أن أداورهم إذا اشتطوا، وأن أعيدهم إلى السياق كلّما طفروا. فما سر هذا التجاوب الروحي؟؟

أهي وحدة النوع ومشاركة الوجدان؟ أم أن في نفسي أغزر من ذلك وأعمق؟

إن وحدة النوع ومشاركة الوجدان لا تكفيان في رأي العقلاء لمثل هذا التجاوب.. لأن المشاهد بينهم أن كبار رجال العقل لا يتوادون إلاَّ إلى حد، وكذلك الشأن في أصحاب الأعمال الموحدة، فالصناع لا يميلون إلى نوعهم المشابه، ورجال السياسة لا يتجاوبون إلاَّ في غرض، والأدباء يختلفون باختلاف أمزجتهم، وأصحاب الآراء يتفاوتون بتفاوت مذاهبهم، وليس بين كل هذه الطوائف وأمثالها من العقلاء أي تجاوب إلاَّ ما اصطنعته المجاملة واقتضاه الأدب الكاذب.

على الرغم من هذا التجاوب العاطفي الذي أشعر به نحو المجانين، فإني أمقت مجنوناً واحداً في الحياة، وأحتقر سيرته التي شغلت العالم طوال قرون عديدة، وأجدف على الصيت الذي تمتع به عبر الزمان.

ذلك هو مجنون ليلى! إذا صحّت سيرته، ولم يخترع الرواة المختلفون شخصيته من خيال واهم.. فلقد أساء المجنون بسيرته التي تناقلتها الكتب إلى المجانين، وظل إلى اليوم عاراً يستاء لقصته كل مجنون ويغض طرفه خجلاً منها.

لقد استخذى أمام الحب، ومرّغ شخصيته في الأوحال، وأفنى نفسه في حياة ضالة سلّمته إلى العبث المقيت والهزء الساخر. وعهدنا بأسيادنا المجانين أقوى شكيمة وأرفع نفساً من هذا التبذّل.

أرادت القصة أن تجعله عاشقاً فضمت القصة معاني العشق، وحيكت من أوهامها وقائع أرادت أن تُسلّي بها القارىء وتثير شجونه بالبكاء والأسى، فأساءت إلى شخصية صاحبنا كمجنون، وأهدرت كرامته، وأرسلته عبر الأجيال مثلاً سيئاً للمجانين.

والقصة إن صحّت في شيء فإنما تصح في قصص الخيال ومبالغات القصّاصين الكذبة الفجرة.

كنت أبحث موضوع المجنون (مجنون ليلى) مع أحد العقلاء فانطلق يدلل بقصته المشهورة على معاني الحب عندما تسمو فوق مستوى الحياة.. فقلت إن ما ترويه القصة لا يسمو بالحب فوق المستوى بقدر ما يهبط به إلى مدارك الهوان السافل، لأن الرضاء بالذل وقبول الانكسار، ونسيان الكرامة، لا يصح نسبتها إلى شيء مشرف في الحياة.

إن في وقائع القصة ما يدلل على تفاهتها.. فنحن لم نصادف إلى اليوم إنساناً يستخذى للحب في مثل ما استخذى صاحبنا المجنون في قصته المشهورة، ولم نستمع إلى مثل حكايته من رأي شاهد موثوق عاين مثلها في جميع ما نسمع من أخبار الحياة.

إنهم أرادوا أن يعطوا فكرة الحب لمعة رائعة.. فاخترعوا لها قصة المجنون، وبذلك أساءوا إلى حقيقة الحب في نظر الحياة، كما أساءوا إلى سمعة الجنون إن كان للمجنون حقيقة، وتركوه يعيش عاراً بين المجانين..

إنني أفهم الحب كفكرة يخفق بها قلب رقيق، فيهفو في تشوُّق وصبابة إلى هدف أضفى عليه ألوان الجمال.. أمّا أن يستخذى لهذا الهدف ويترك شخصيته تتحلل إلى عناصر لها قيمة التراب.. فهذا ما لا ينتظم مع المعاني السامية التي يتصبب إليها القلب الرقيق.

لحى الله المختلقين بما أساءوا، وجزاهم بما شوهوا من سمعة المجانين.

-45-

كان يحدثني عن أمنيته في أن يبني لقريته مدرسة ينفق عليها من دخله الخاص، ويتكلف بإطعام طلبتها وكسوتهم. قلت: إنك سوف لا تثمر جيلاً نافعاً إلاَّ إذا ألحقت بمدرستك قاعة للمطالعات، وهيأتها بأحسن الكتب وأغناها مادة، وأوفرها نفعاً.

ولو زاد فخيري بعد بناء المدرسة بين إطعام طلبته، أو إسدائهم مكتبة عامرة بالعلوم والفنون لما ترددت في رجائه بأن يلغي نفقات الأكل ليوفرها لبناء المكتبة.

إن في استطاعة الطالب الفقير أن يشبع جوعته في بيت ذويه مهما كان لون الشبع، ولكنه ربما عجز عن الظفر بكتاب واحد يغذي أفكاره ويغني حاجته إلى المعرفة.

سيُقال عني مجنون لا يعرف قيمة الغذاء الصحي لطالب العلم، وما عليَّ ألاَّ يفهم العقلاء أن الغذاء الصحي إذا كان لازماً للطالب فإن الغذاء الفكري ألزم منه؟

إنني لا أعرف قيمة للتعليم المحدود بمناهج الدراسة وكتبها المقررة.. إن التعليم في معناه الرفيع ليس إلاَّ إعداداً يهيىء الطالب للخوض في معمعة الحياة الشاسعة، ويهيئه لدراسة الأفكار التي تصطفق بالأجيال تلو الأجيال.

أعرف أشخاصاً أتموا دراستهم، ثم تسلموا وثائق ما درسوا في شهادات لها لغة الصكوك، ثم انطلقوا في جدد الأرض قانعين بصكوكهم كما لو كانت الصكوك غاية أهدافهم لا وسيلة لها.

وهم بعد هذا عقلاء في رأي أنفسهم، فقد استوفوا –فيما يرون– نصيبهم من حياة الدراسة، وأتموا واجباتها عليهم فلِمَ لا تنتهي علاقتهم بها على أثر ذلك؟

ليتني أملك ما يرفع الغشاوة عن هذه البصائر لتدرك مبلغ ما تخطىء، وتعرف أن مدى ما انتهت إليه من آفاق العلم ليس إلاَّ إعداداً للتحليق في آفاق جديدة ليس لها مدى، وأن وظائف المدرسة والمعهد والجامعة لا تتعدى تهيئة ذهن المتخرج لفهم الحياة في أبسط حقائقها وإعداده في صورة تؤهله لهضم معارفها المتجددة بتجدد الأيام!

شد ما تخطىء المدارس التي لا تنشئ طلابها على حب المطالعة، وتغرس فيهم غرام الاطلاع، وتربي فيهم ملكة التطلع إلى أبعد آفاق الفكر وأغزر مآتيه.

وحبذا لو عنيت مدارسنا بغرف المطالعات فيها وزوّدتها بأقدم ما أنشأته الأفكار، وأحدث ما أنتجته المطابع، ودرّبتهم على الاحتكاك بأغرب الآراء، ومدارستها في أسلوب البصير الذي ينتقد الحقائق، ويجيد فرز الغث من السمين فيها.

إذاً لاستقام لنا نشء قوي بيقظته الفكرية، عظيم بحصيلته الذهنية التي تؤهله لمجاراة الحياة وتعده لسياق الأمم الناهضة فيها.

هذه تمنيات مجنون يرجو أن يشاركه العقلاء فيها، وأن يبذل القادرون في سبيلها ما يسعهم البذل.

-46-

سمعتُ أديباً يشكو كساد بضاعته، ويأسف لما احترف من فن الكتابة ويألم للنتائج التي يراها مثمرة في كل الحِرف التي يراها بين يديه عدا حرفته التي لم تظفر إلى اليوم بما يبشر عن نتائجها، أو يشير إلى مواقع الأمل فيها.

تلك شكاوى أديب عاقل درّب قلمه على احتراف الأدب، وعاش على كثب ينتظر نتائج ما احترف، ولو أنصفت الحياة لكان أديبنا مكان الشكوى فيما احترف!!

فنحن جماعة المجانين لا نأسى بشيء كما نأسى للاحتراف.. ولا نأسف في حياتنا كما نأسف للمتأدبين الذين يميلون للكتابة كحرفة فيعتصرونها من رؤوسهم

في مشقة العصّار الذي يختار لزبائنه أعواد القصب ثم يكابد عجلة العصير ليقدم ما يشتهون.

إن النحلة تهدي نتاجها إلى العسّالين في غير ما كبد تعانيه؛ لأنها تتخير ما تصطنع، ولا تحترف ما تجهد حياتها من أجله بل تركت غرائزها تتفاعل كيفما شاءت دون أن تتكلف له لوناً يرضيه أو صنفاً يشتهيه.

إن احترافهم للأدب لا يختلف كثيراً عن احتراف العصّار، فلا عجب أن يكابدوا في سبيل ما يحترفون كبد العصّار، ولو كان لهم فن النحل لتساموا عن الصنعة وأبوا أن يتركوا غرائزهم تتفاعل كيفما شاءت لتنتج ما شاءت لا ما شاء العسال!!

إن الأدب كفن يتسامى عن الأوضاع المهنية فهو لا يعطي نتاجه في خطوط يرسمها المحترف كما يرسم المهندس خارطة ما يبني بالمسطرة والبركار، بل هو فيض يلهم الأديب معانيه فتجري إلى لسانه أو قلمه في غير كلفة يصطنعها كما تجري المعاني إلى ريشة الفنان في تدفق لا يعرف كيف جاشت به نفسه ولا كيف تهيأ لها بناؤه.

إذا استطاع الأديب أن يكبر بقلمه على جميع الدوافع الخارجة عن نفسه، وأن يستوحي فيما يكتب طبيعته الأصلية فقد خرج بفنه عن المحترفين الذين يتكلفون الكتابة كما يتكلف المهنة أصحابها.. وبذلك لا يأسف للنتائج إذا خسرت لأن ما ينتجه فيض لا بد له أن يسيل إلى قلمه[2].

[تمت بحمد الله تعالى]

(2) – فائدة : الكتاب الأصـــلي للأســـتاذ الســـباعي تقع طبعته الأولى – دار ممفيس للطباعة في 148 صفحة ، ولما لم نجد الطبعة الأولى منه ولا الطبعات اللاحقة فقد اصبح بهذا العدد من الصفحات ، ولعل من يقرأ كلماتنا يتفضل مشكوراً بتصويره ونشره ، والله من وراء القصد .
سرمد حاتم شكر السامرائي